

الفصل الثالث

الغزوة الاستعمارية للجزائر

- ١ - التركيب الاجتماعي للجزائر .
- ٢ - الحملة الفرنسية على الجزائر .
- ٣ - حركة الأمير عبد القادر .
- معاهدة ديميشيل في فبراير ١٨٣٤ .
- تجدد الحرب بين عبد القادر والفرنسيين .
- معاهدة التافنة في ٢٠ مايو ١٨٣٧ .
- مقاومة الحاج أحمد باي قسنطينة .
- سقوط معاهدة التافنة وتجدد الحرب .
- الجنرال بيجو وخطة الطواير المتحركة .
- الزملة .
- نكبة الزملة .
- استمرار مقاومة عبد القادر .
- الحرب بين عبد القادر وسلطان المغرب .
- تحطيم مقاومة عبد القادر .
- استسلام عبد القادر .
- ٤ - المقاومة الجزائرية بعد عبد القادر .
- ثورة مقراني ١٨٧١ .
- مراجع للاستشارة .

١ - التركيب الاجتماعى للجزائر عشية

الاحتلال الفرنسى

تشير أكثر التقديرات احتمالا لتعداد السكان فى الجزائر فى أواخر العهد العثمانى إلى أن عدد السكان لم يكن يتجاوز ثلاثة ملايين ونصف . وكانت نسبة ضئيلة من هؤلاء ، لاتتجاوز ٥ ٪ ، هى التى تعيش فى المدن ، على حين كانت الغالبية الساحقة تعيش فى الريف .

وكانت الأوضاع الاقتصادية لهؤلاء السكان ، الذين كانوا يتكونون من عرب وبربر ، متخلفة . فقد كانت الزراعة هى المصدر الرئيسى للإنتاج ، وكانت أدواتها بدائية لاتتجاوز المحراث الخشبى والمنجل . ومع ذلك فإن هذا المصدر ذاته أخذ يفسح المكان للحياة الرعوية - فأصبحت حرفة الرعى حرفة مكملة لزراعة أراضى العرش الجماعية بالنسبة لبعض جماعات السكان ، وأصبحت بالنسبة للبعض الآخر حرفة مستقلة . وكان جزء من السبب فى انتقال الفلاح الجزائرى من حرفة الزراعة إلى الرعى يرجع إلى انتشار الجذب فى قسم هام من أراضى الجزائر الشمالية ومنطقة الهضاب العليا الشرقية ، أما الجزء الآخر فيرجع إلى انعدام الأمن ، فقد كان الفلاح الجزائرى عرضة للهجمات الانتقامية لضمان المطالب المالية المتزايدة للبايليك (وهو قسم ادارى كالمحافظة) ، ومهددا من قبائل المخزن المسلحة ، ممادفع الكثيرين من الفلاحين إلى تفضيل الرعى على الاستقرار فى الأرض لخدمتها ، أو اللجوء إلى الزراعة المؤقتة والرعى المتنقل فى المناطق التى انعدم فيها الأمن ، وأصبحت تعرف ببلاد البارود أو أرض الخلاء . وقد عملت نفس الظروف فى المناطق الجبلية الحصينة على تكوين طبقة من الفلاحين قادرة على ممارسة الزراعة وحمل

السلاح في الوقت نفسه عند الحاجة ، تحت قيادة بعض الأشراف والمرابطين ، فكان هذا الصنف من الفلاحين الدعامه الأساسية للمشيوخ والعائلات الوراثية ببلاد القبائل الكبرى والصغرى و جبال الونشريس والأوراس ومواطن النمامشة والحنانشة .

وكانت الملكية الجماعية للأرض هي أكثر أنواع الملكيات انتشاراً في الجزائر ، وإن كان النظام الإقطاعي ينتشر أكثر ماينتشر في الشرق الجزائري . وكان جميع السكان ، فيما عدا سكان المدن والمناطق المستقرة ، منقسمين إلى عشائر وقبائل . وفي المناطق القبلية كانت تنتشر الملكية الجماعية للأرض . وفي المناطق البدوية كانت الأراضي تنتمي للعشائر والقبائل . أما في المناطق المستقرة فكانت تنتمي إلى الجماعات القروية . وإلى جانب الأراضي المشاعية والإقطاعية كانت توجد أراضي الدولة (الدومين) وأراضي الحبوس (الأوقاف) .

وكان السكان ينقسمون من ناحية ولأئهم للسلطة التركية إلى ثلاثة أقسام :

أولاً : قسم يتحالف مع السلطة مقابل فوائد مادية وأدبية ، ويعرف بقبائل المخزن ، التي اتخذت مع الزمن شكل قبائل مستقلة كقبائل الدوائر والزمالة ، أو شكل مجموعات عرقية مغلقة كمخزن الكراغلة Kuloglu .

ثانياً : قسم خاضع مباشرة للأتراك ، ويعرف بقبائل الرعية .

ثالثاً : قسم مستقل عن السلطة التركية متحصناً في المناطق الجبلية كالأوراس والونشريس والبابور والقبائل ، أو بعيداً عن أيدي النظام بأرض الجنوب الملائمة لحياة الرعي والترحل . وتنتمي غالبية سكان هذا القسم إلى مجموعات قبلية على رأسها عائلات تعتمد في فرض نفوذها على السلطة الروحية أو الكفاءة الحربية . وكانت العائلات ذات الطابع الديني تتركز في الغرب

الجزائري ، في حين كانت العائلات الإقطاعية ذات الطابع العسكري تتركز في الشرق الجزائري ، أما الحياة القبلية الديمقراطية فانحصرت في المناطق الجبلية الحصينة في شمال وشرق الجزائر الوسطى .

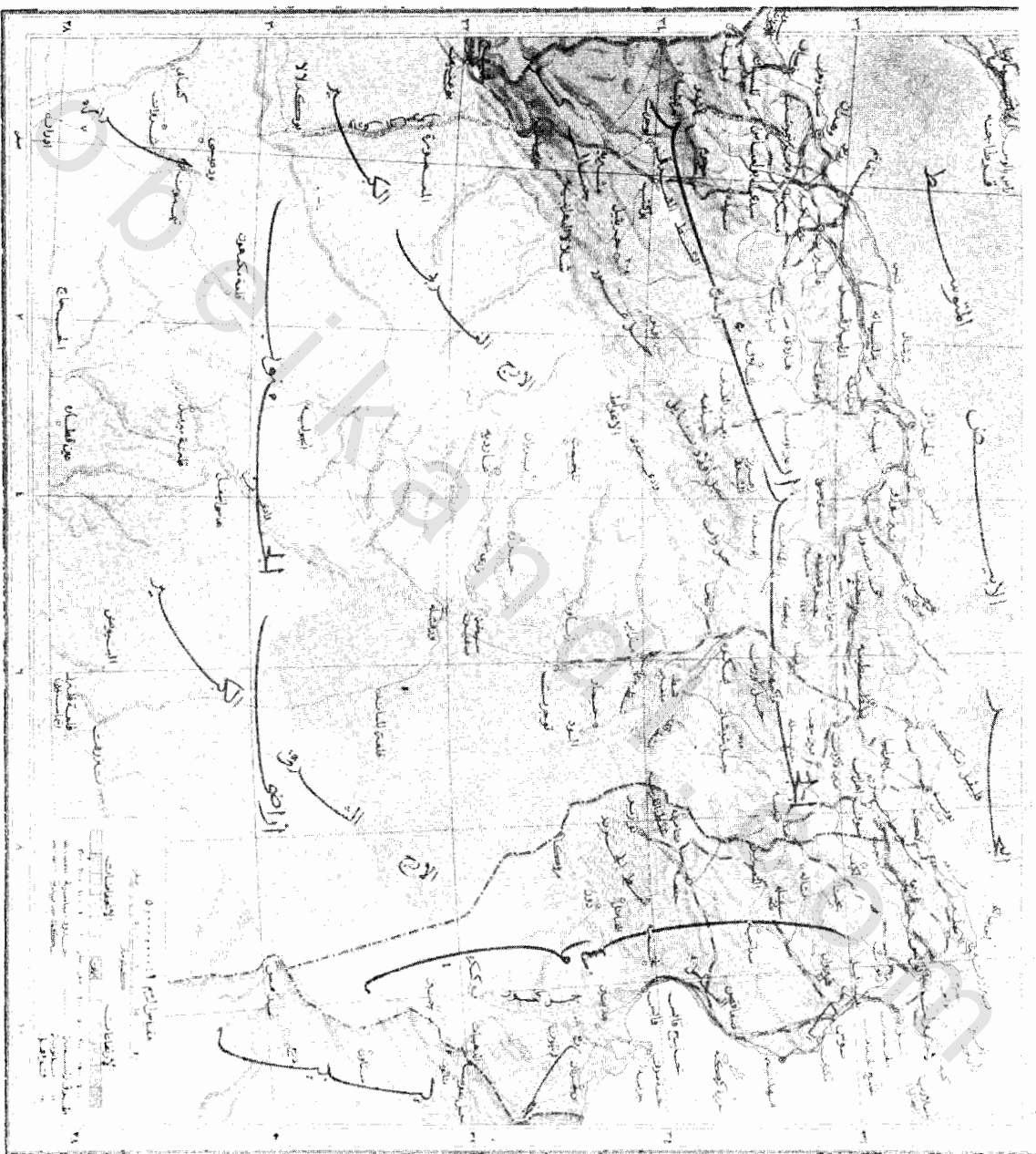
أما في المدن فقد اتخذ التركيب الاجتماعي فيها شكلا هرمياً ، تحتل قمته الأرستقراطية التركية التي كان عددها لا يتجاوز عشرين ألفاً ، وكانت منعزلة عن بقية السكان لصيانة تقاليدها الخاصة في نظم العيش والسلوك . وبلى هذه الأرستقراطية في السلم الاجتماعي جماعة الكراغلة التي تكونت نتيجة التزاوج بين الجنود الإنكشارية ونساء البلاد ، وكان عددها في المدن الكبرى في نهاية القرن التاسع عشر يبلغ حوالى ٦٠٠٠ نسمة ، كما أصبحت تكون غالبية سكان تلمسان وأصحاب الرأي فيها .

وكانت نظرة أهالي البلاد إلى هذه الطبقة لانفترق كثيراً عن نظرتها إلى السادة الأتراك الحاكمين . وربما كان موقف الأمير عبد القادر من كراغلة تلمسان وزواتنة القبائل ذوى الأصل الكرغلى ، تعبيراً صادقاً عن هذه النظرة .

وبلى طبقة الكراغلة طبقة الحضر التي كانت تتكون من العائلات الحضرية المتأصلة في البلاد ، ومن مهاجرى الأندلس بعد تكاثر عددهم . وكانت هذه الطبقة تقوم بما تقوم به البورجوازية الوطنية من الأعمال الرأسمالية التجارية والزراعية ، وتولى بعض أفرادها مناصب القضاء والافتاء والكتابة .

وبلى هذه الطبقة « طبقة البراني » ، وهم طبقة أصحاب الحرف . وفي مدينة الجزائر اشتهرت كل جماعة منها بحرفة من الحرف ، فالأغواطيون اشتهروا بالتنظيف . والبساكرة بأعمال الأثقال والحراسة ، والقبائل بأعمال البناء ، والزنوج بخدمة المنازل .

وإلى جانب هذه الطبقات وجدت طبقة الدخلاء . وكانت تتكون في البداية



من جماعة الأسرى المسيحيين المستخدمين في الحانات أو السجون أو رعاية البساتين أو الخدمة في قصر الداى . ولكن عدد هؤلاء المسيحيين أخذ يتلاشى بعد هجوم « اللورد أكسموث عام ١٨١٦ ، ولهذا أصبحت طبقة الدخلاء تتكون غالبيتها من الجالية اليهودية التى عملت بالسمسرة والربا والتجارة ، وكونت غالبيتها ثروات ضخمة ، وكانت محل غضب الأهالى الذى تحول إلى ثورات انتقامية في سنوات ١٨٠١ ، ١٨٠٤ ، ١٨٠٥ ، ١٨١٥ .

٢ - الحملة الفرنسية على الجزائر

كانت مشاريع الفتح الفرنسي للجزائر قد نضجت منذ أوائل القرن التاسع عشر . فقد كان نابليون الأول يضع الجزائر في قائمة ممتلكاته في المستقبل عند تجزئة الإمبراطورية العثمانية ، وكان يعتبرها سوقاً ضرورية لتطور الصناعة الفرنسية . كذلك كان التعطش لأسواق جديدة في عهد شارل العاشر ، والرغبة في إحياء السياسة التوسعية لفرنسا ، إلى جانب رغبة أسرة البوربون في استعادة هيبتها وتوطيد عرشها المزعزع - من العوامل الأساسية للاستيلاء على الجزائر .

وقد بقيت حينذاك مسألة الذريعة المناسبة للغزو ، وهذه وجدتتها السياسة الفرنسية بسهولة في المنازعات المالية بينها وبين الجزائر ، المتعلقة بسداد ما اقترضته فرنسا منها ، وهي المنازعات التي انتهت بضربة المروحة الشهيرة التي وجهها الداي حسين باشا إلى القنصل الفرنسي ببيير ديفال يوم ٣٠ أبريل ١٨٢٧ . فبدأ حصار فرنسي على ميناء الجزائر في يونيو سنة ١٨٢٧ استمر حتى يوم ٢٥ مايو ١٨٣٠ ، حين قامت حملة بقيادة الجنرال دي بورمون Bourmon من قاعدة طولون البحرية تضم ٣٧ ألف جندي علاوة على ٢٠ ألفاً من رجال البحرية ، نزلت على شاطئ خليج سيدى فرّج الواقعة على بعد ٢٥ كيلو متراً غربى مدينة الجزائر يوم ١٤ يونيو ، حيث دارت معركة غير متكافئة انتهت بهزيمة الجزائريين . وفى يوم ٤ يوليو سقط حصن الإمبراطور الذى يحمى مدخل مدينة الجزائر الجنوبي ، وفى المساء وقع الداي وثيقة الاستسلام . وفى صباح يوم ٥ يوليو ١٨٣٠ دخلت القوات الفرنسية المدينة دون مقاومة .

ولقد كان بسبب هذه السهولة التي سقطت بها مدينة الجزائر ، أن اعتقد

الجنرال دى بورمون أن البلاد كلها سوف تسقط فى يده خلال خمسة عشر يوماً وبدون طلقة واحدة ! . ولكنه أخطأ التقدير ، فقد استغرق إخضاع البلاد أربعين عاماً . فلم يكد يسفر الفرنسيون عن خططهم للاستيلاء على البلاد حتى أظهر العنصر الوطنى الرئيسى فى الجزائر ، وهو القبائل ، عزمه على مقاومة الغزاة ، ولذلك حين أراد دى بورمون إرسال حملة إلى « بليدة » التى تقع عند سفح الأطلسى على بعد ٤٨ كيلو متراً جنوب مدينة الجزائر فى إقليم يسكنه رجال القبائل ، لقى هزيمة ساحقة على يد قبائل المتيجة ، وقد كشفت هذه الهزيمة ، وما تلاها من إخلاء بونا ووهران بعد احتلال لم يدم إلا بضعة أيام ، عن أن تحطيم الحكم التركى فى مدينة الجزائر لن يسهل بحال السيطرة على داخلية البلاد .

٣ - حركة الأمير عبد القادر

في هذه الظروف برزت حركتا مقاومة على درجة كبيرة من القوة ، إحداهما في الغرب الجزائري تحت قيادة الأمير عبد القادر ، والثانية في الشرق الجزائري تحت قيادة الباي أحمد قائد منطقة قسنطينة .

وبالنسبة للأمير عبد القادر ، فهو عبد القادر ناصر الدين ، الابن الرابع لعبد القادر محيي الدين ، وقد ولد في شهر مايو ١٨٠٧ في قرية القيطنة على ضفة وادي الحمام في منطقة أغريس التي تقع في إقليم وهران في الجزائر . وهو ينتمي لقبيلة هاشم العربية النازلة قرب مدينة « معسكر » عاصمة وهران ، وهي أسرة « مرابطة » ، تستمد مكانتها من الدين . وقد لعب والده دوراً هاماً في الثورة التي قامت ضد الحكم العثماني في وهران قبيل الغزو الفرنسي . وكان الأمير ينتمي إلى إحدى الطرق الصوفية (القادرية) ذات النفوذ في شمال أفريقية ، فهيأ له أصله القبلي وانتمائه الديني طريق الزعامة . وقد تعلم أصول الشريعة والحديث وحفظ القرآن في سن مبكرة ، وتعلم الفروسية وصحب أباه في رحلة إلى بلاد المشرق للحج ، قبل الغزو الفرنسي للجزائر ، وزار العراق ومصر ، وأعجب بالتنظيمات والإصلاحات التي أدخلها محمد علي . وبعد عودته بعامين وقع الغزو الفرنسي .

وفي البداية لم يشعر الجزائريون بسبب يدعوهم إلى اعتبار الغزو الفرنسي علامة على خطر يهدد وجودهم القومي ، لأن الفرنجة طالما نزلوا بشواطئ العرب ، بل إنهم كانوا يحتلون بعض مدنها الساحلية ، ولكن سلوك الفرنسيين سرعان ما أقنعهم بأن حضور هؤلاء الغزاة في هذه المرة لم يكن حضوراً عادياً . ومن ثم بدت الحاجة ماسة إلى توحيد الصفوف والقضاء على الانقسام الإقطاعي والقبلي .

وقد اتجه المرابطون إلى محيى الدين فى ذلك الحين ، ولكنه أبدى رأيه بأن دولة غنية محكمة النظام مثل فرنسا عليها ملك قوى ، لا يمكن أن تواجهها إلا دولة أخرى محكمة النظام مثلها . وكان من رأيه الانضواء تحت لواء سلطان المغرب ، وبالفعل توجهت بعثة من أهالى تلمسان إلى سلطان المغرب لإعلان ولائها ، وقبل السلطان بالفعل هذا الولاء ، وعين ممثلا له فى تلمسان ، ولكن الحكومة الفرنسية وجهت اندازاً عاجلاً إلى السلطان بالانسحاب من الجزائر أو الحرب ، فلم يملك السلطان سوى الاستجابة . وعند ذلك شعر الوهرانيون بضرورة تنصيب زعامة عليهم توحد صفوفهم ، وعرضوا على محيى الدين أن يكون سلطانهم فقبل ، وتنازل عنها لابنه عبد القادر ، فتمت له البيعة يوم ٢١ نوفمبر ١٨٣٢ ، ولم يكن يبلغ الرابعة والعشرين من عمره .

من ذلك يتضح أن مهمة الأمير عبد القادر الأساسية كانت إقامة « دولة » محكمة النظام يستطيع بها مواجهة فرنسا ، ولذلك وعلى الرغم من اعترافه فى هذه المرحلة بالسيادة العليا لسلطان مراكش ، فقد اتخذ لنفسه لقب أمير المؤمنين ، واتخذ مدينة « معسكر » مركزاً لحكمه ، ودعا القبائل إلى إعلان ولائها وطاعتها له .

على أن أسباب الانقسام الداخلى لم تذلل مهمته ، فقد عارض سلطته رؤساء القبائل الذين صاروا طوال الحكم التركى للمحافظة على وجود مستقل لهم . كما وقفت قبائل المخزن موقفاً معادياً له ، وأما الفرق الدينية فقد وقفت موقفاً متبايناً ، فبينما أيدته أنصار الطريقة القادرية ، عارضه أنصار الطرق الطيبية والتيجانية .

وقد قامت سياسة الأمير عبد القادر على استخدام السيف فى تحقيق الوحدة الوطنية حيثما فشلت المساعى السلمية ، وعلى الاشتباك مع الفرنسيين أملاً فى تحقيق نصر يقضى على عوامل الفرقة والانقسام ويدلّل صعوباته الداخلية . كما قرر إقامة سيادته على أرض صلبة ، عن طريق الاحتفاظ فى يده بمراكز قوية ،

وتشييد دور الأسلحة ، وبناء المخازن ومستودعات الذخيرة . ولم يكن اتخاذ ميناء على البحر بأقل أهمية للأمير ، للاتصال بالدول الأجنبية ، واستيراد السلاح ، والتأثير الدبلوماسي على الفرنسيين ، فاحتل مدينة أرزيو الواقعة على مسافة فرسخين من الميناء الذي يحمل هذا الاسم ، كما احتل مدينة تلمسان على بعد سبعين ميلا جنوب غرب وهران ، ثم فرض الحصار التجاري على الفرنسيين من الداخل فألزم القبائل بقطع المبادلات التجارية مع الغزاة ، وأصدر فتوى بارتداد كل من يساعد الفرنسيين عن دينه ، لذلك أطلق على القبائل الخاضعة للفرنسيين اسم « المتنصرة » .

وعندما أدرك الفرنسيون أنهم أمام قوة وطنية جديدة يحسب حسابها ، رأوا ضرورة التفاوض معه على أساس الاعتراف بسيادته على المناطق الداخلية ، واعترافه باحتلال الفرنسيين للمناطق الساحلية . وعلى الرغم من أن هذا الأساس لا يحقق السيادة الجزائرية على كامل أرض الجزائر ، إلا أن الأمير عبد القادر لم يكن لديه ما يمنعه من قبول اتفاق يتيح له الوقت الكافي للتنظيم الداخلي والقضاء على المتقاعسين والمترددین وتعزيز دولته . وهذا هو أساس المعاهدة التي عقدت بينه وبين الجنرال ديميشيل Dumichels قائد عام القوات الفرنسية .

معاهدة ديميشيل Dumichels في ٢٦ فبراير ١٨٣٤ :

اعترفت هذه المعاهدة بالأمير عبد القادر « كأمير المؤمنين » ، وهو مصطلح لا يستعمله إلا الخلفاء ذوو السلطة الروحية والسياسية ، وأقرت مبدأ تبادل القناصل بحيث يرسل هو ثلاثة قناصل إلى ثلاثة موانئ رئيسية كانت في يد الفرنسيين وهما : وهران وأرزيو ومستغانم . ويرسل الفرنسيون قنصلا واحداً إلى مدينة معسكر عاصمة الإمارة . كما نصت المعاهدة على تبادل الأسرى وحرية العمل بالدين الإسلامي وحرية التجارة وضرورة تبادل المجرمين

الهاربين . وبالجمله فإن المعاهدة عكست علاقات القوى بين الأمير والفرنسيين ، وكان الجانب الايجابى فيها أن الفرنسيين اعترفوا بالأمير عبد القادر كرئيس لدولة مستقلة يتعاملون معه على قدم المساواة فى جميع المسائل السياسية والتجارية والقضائية ، وإن كانت المعاهدة لم تشمل تحديداً جغرافياً للمناطق التابعة للأمير .

على أن عوامل الانقسام الداخلى تجددت بعد إبرام المعاهدة بسبب النزعة القبلية من جانب ، وتضرر القبائل من دفع الضريبة الإضافية التى فرضها الأمير فى أثناء القتال من جانب آخر .

وكانت الذريعة المعلنة هى مهادنة الأمير للكفار . ولكن الأمير عبد القادر تغلب على الثائرين ، وانتصر عليهم قرب تلمسان فى يوم ١٣ يوليو ١٨٣٤ . وفى نهاية سنة ١٨٣٤ كان إقليم وهران قد خضع كله للأمير ، باستثناء المركزين الفرنسيين على الساحل : وهران ومستغانم . واتجه الأمير بعد هذا إلى توسيع دائرة نفوذه بحيث اشتملت على جزء كبير من إقليم تيطرى ، فاستولى على مليانة . وأقام فيها نائباً ، وتمكن من طرد أحد رجال الطريقة الشاذلية (الحاج موسى) من الميديّة فى أبريل ١٨٣٥ ، كما سلمت واحة بسكرة الواقعة جنوب إقليم قسنطينة بالتبعية لحكومة الأمير .

تجدد الحرب بين عبد القادر والفرنسيين :

رأت السلطات الفرنسية الاستفادة من الروح القبلية الانقسامية فى الجزائر ، فى ضرب سلطة عبد القادر . فشجعت قبائل الدوائر والزماله على طلب الحماية الفرنسية ، فى مقابل زيادة التبادلات التجارية المربحة . وفى ١٦ يونية ١٨٣٥ وقعت مع هذه القبائل معاهدة وضعتها تحت الحماية الفرنسية وأصبحت بمقتضاها رعية فرنسية .

وعندما علم عبد القادر بذلك ، كتب إلى تريزيل Trezel ، الذى خلف ديمشيل فى وهران ، محتجا بصرامة على هذا العمل الذى عده خرقا صارخا لمعاهدته مع ديمشيل ، والتى بمقتضاها تعهد له الفرنسيون بعدم منح القبائل حق اللجوء إليهم ، والتزامهم بإعادة العرب الفارين إلى صفوفهم إليه ، وقال : « إن الدوائر والزمالة هم رعيى . وبناء على قانوننا فإن لى الحق فى أن أفعل بهم ما أشاء . فإذا سحبتم عنهم حمايتكم أجبرتهم على اطاعتى كما كانوا من قبل ، وإذا كان موقفكم العكس ، وأصررتهم على التنكر لالتزاماتكم ، فاسحبوا قنصلكم من مدينة « معسكر » فى الحال ، لأنى لن أرفع يدى عن قبائل الدوائر والزمالة ، حتى ولو دخلوا وراء حصون وهران ، إلا بعد أن يتوبوا ويندموا ، فإن دينى يمنعنى من السماح لمسلم بأن يكون تحت سلطة أجنبى . فاختاروا ما يحلو لكم ، أو يحكم اله الحرب بيننا » .

فى ذلك الحين ، كان الفرسان الفرنسيون قد أغاروا على مزارع بنى هاشم الغرابة ، وهم قبيلة عائلة عبد القادر الخاصة ، طلبا للشعير الذى يفتقرون إليه . فأرسل عبد القادر قوة تتكون من ألفى فارس وثمانمائة من المشاة عند نهر « سيق » . ولكن تريزل قرر مهاجمة هذه القوة قبل أن تستفحل ، فقاد فى ٢٦ يونية ١٨٣٥ جيشا يتكون من خمسة آلاف من المشاة وفرقة من القناصة ، وأربع قطع مدفعية ، وعشرين عربية تموين . ولكن هذه القوة لم تكد تدخل غابة مولاى إسماعيل ، حتى تعرضت للهجوم من « طلائع » فرسان عبد القادر ، فدبت الفوضى فى كامل الجيش الفرنسى ، ولم يمكن إعادته إلى النظام إلا بجهد جهيد .

ثم وصل الجيش الفرنسى إلى نهر سيق عند الغروب حيث نصب معسكره ، بينما كان جيش عبد القادر الرئيسى يعسكر على بعد فرسخين من النهر . وعند الفجر أراد تريزيل الانسحاب ، ولكن عبد القادر سارع إلى قطع الطريق المؤدى إلى وهران ، واضطر تريزيل إلى أن يتحول قاصدا مدينة « أرزيو » عن طريق مضيق نهر الهبرة عند مكان يتغير فيه اسم النهر إلى اسم نهر المقطع .

ولكن عبد القادر سارع إلى الاستيلاء على المضيق ، بعملية باهرة ، فقد اختار ألف فارس ، وأمر كل منهم بأن يردف خلفه فارسا آخر ، وأن يسرعوا إلى المضيق ، ونجحت العملية نجاحا كاملا ، فلم يكد الفرنسيون يدخلون المضيق ، حتى وجدوا جانبيه مدججين بالسلاح ، وأخذت تنهال عليهم الصخور ، في الوقت الذي كان عبد القادر وجيشه كله قد سدوا عليهم الطريق إلى الخلف . وأسرعت الكتائب الفرنسية هنا وهناك بحثا عن مفر دون جدوى ، وفصل رجال المدفعية المدافع عن حاملاتها وهربوا ، واختلطت الفرق ، وعند الليل كانت البقية الباقية من القوات الفرنسية تسير مضعضعة نحو مدينة أرزيو في جماعات مفككة ، بينما كان الجنود الجزائريون ترتفع صيحاتهم بالفرح ، وتلمع مشاعلهم المتوهجة في المضيق خلال الليل كله ، وجثت القتلى الفرنسيين وروعهم تتكدس وترتفع في هرم صغير .

وقد وقعت هذه الهزيمة ، التي لقيتها القوات الفرنسية في « معركة المقطع » ، وقع الصاعقة في فرنسا ، فاهتزت للنكبة ، واستدعى الجنرال تريزيل ، وحل محله الجنرال دارلانج ، وعين المارشال كلوزيل حاكما عاما ، وأخذت الحكومة الفرنسية في زيادة عدد الجيش في الجزائر ، وأعدت ادارة حرب قوية لمحاربة عبد القادر ، وأصدرت قرارا باحتلال مدينة « معسكر » أملا في أن احتلال عاصمة عبد القادر سوف يجبره على التسليم .

وقد وصل كلوزيل إلى مدينة الجزائر يوم ١٠ أغسطس ١٨٣٥ ، وأرسل الحملات العسكرية إلى المدينة ومليانة وشرشال ، ولكنها جميعا عادت خائبة مهزومة . وأمر عبد القادر خليفته في مليانة بالسير إلى متيجة على رأس خمسة آلاف مقاتل ، ونظف سهول مدينة الجزائر من كل المستوطنين الفرنسيين ، وأقام الحصار على مدينة الجزائر نفسها . وفي الوقت نفسه أصبح الجنرال دارلانج D'Arlande ومعسكره في وهران محصورين في البوغاز ، وأوشك عبد القادر أن يحقق انذاره بأن « أى طائر لن يطير فوق المدن التي يحتلها الكفار إلا بأمر منه » !.

وقد أثارت هذه الهزائم غضب الجيش الفرنسي ، وطلب اتخاذ اجراء ضد عبد القادر . فتوجه كلوزيل إلى وهران يوم ٢١ نوفمبر ، وأعد بنفسه جيشا قويا من اثني عشر ألف مقاتل ، وغادر وهران يوم ٢٧ نوفمبر ، واجتاز غابة مولاى إسماعيل ، وعبر نهر سيق دون مقاومة ، ولكن عبد القادر كان ينتظره فى الطريق الرئيسى إلى مدينة « معسكرة » حيث وضع ميسرة قواته على مرتفع نصب فوقه المدفعية ، بينما كانت ميمنته محمية من الهجوم . على أن جيش عبد القادر من رجال القبائل كان يفتقر إلى مستوى عبقرية قائده التى دعتة إلى اختيار ذلك المكان ، كما كانت أقل من المستوى اللازم لخوض المعركة فى هذا الميدان المكشوف . ولذلك استطاعت المدفعية الفرنسية تمزيق شمله ، واستولى الفرنسيون على الغابة الواقعة على يمين المواقع العربية ، بينما تقدمت مدفيعتهم إلى الأمام فى الطريق الرئيسى . وقد حاول عبد القادر دون جدوى المحافظة على بعض النظام أثناء انسحاب قواته ، ولكن الروح القبلية الانقسامية تغلبت ، فانحلت فرق مشاته النظامية ، وأما فرسان القبائل فقد عاد البعض منهم إلى المنازل ، وأسرع البعض الآخر إلى مدينة معسكر وبدأ فى أعمال النهب . وأما عبد القادر نفسه فقد انسحب إلى حصن كاشرو الذى كانت تملكه أسرته على بعد فرسخين من « معسكر » .

وفى يوم ٦ ديسمبر ١٨٣٠ دخل كلوزيل مدينة معسكر التى هجرها أهلها ولم يبق منهم سوى بقية من اليهود البؤساء . وفى السابع من الشهر اشتعلت النار فى أجزاء مختلفة من المدينة ، ولكنها سرعان ما أطفئت . وفى اليوم الثامن من الشهر ، أى بعد ثمان وأربعين ساعة ، انسحبت القوات الفرنسية من « معسكر » .

وقد كان رد فعل هذه الهزيمة قاسيا فى نفس عبد القادر . فقد تلطخت سمعته وشهرته نتيجة ضعف وجبن بعض رجاله وخيانة الآخرين ، وتخلى عنه بعض رؤساء القبائل الذين كان يعتمد على تأييدهم . على أن روح اليأس لم تدب إلى قلبه ، وحاول تثبيت المنزعجين وتشجيع المنهارين . وحين أرادت أمه أن تبث فى

أذنه بعض كلمات المواساة والصبر والعزاء ، رد عليها قائلاً : « إن النساء يا أماه هن الجديرات بالشفقة وليس الرجال » .

وحين جلا الفرنسيون عن « معسكر » ، كان هو أول من عاد إليها وظهر أمام أبوابها . وانتشرت أخبار عودته بسرعة ، فرجع كثيرون ، وجاء بعض رؤساء القبائل ممن فروا ، وسألوه عما يطلبه منهم ، فطلب إعفائه من الحكم ، على أنهم جثوا أمامه وطلبوا منه الصفح ، ووعدوه بالثبات في المستقبل قائلين إنه « إذا تخلى عنهم فلن يكون أمامهم إلا الاستسلام للكفار » . وقد لمس هذا القول الوتر الوحيد الذي يخفق له قلب عبد القادر ، فأجاب : « ليفعل الله ما يشاء ، ولكن تذكروا أنني أقسمت ألا أدخل مدينة معسكر باستثناء الجامع ، حتى تتأروا لهزيمتكم النكراء » .

على أن هزيمة عبد القادر كانت قد فعلت فعلها في القبائل الأخرى البعيدة ، ودعتها إلى الانقلاب عليه ، والتخلص مما فرضه عليها من ضرائب الجهاد . فقد انحاز مصطفى بن إسماعيل إلى أعداء البلاد ، ووعد كلوزيل بأن يجلب له تعاون وتأيد عدد كبير من القبائل العربية إذا ما تقدم نحو تلمسان . كذلك أعلن « بنو انجاد » صداقتهم لكلوزيل ، وأخذوا يتقدمون في أعداد كبيرة نحو المدينة ، لمساعدة الكراغلة على الفرار من القلعة التي كانوا محاصرين فيها .

وقد أحس عبد القادر أن القضاء على هذه الروح القبلية الانقسامية لا يقل أهمية من الناحية النضالية عن القضاء على الاستعمار ، فسارع إلى مهاجمة المنشقين ، وفاجأ مصطفى بن إسماعيل والكراغلة في نفس اللحظة التي كانوا يهيمون فيها بالخروج من المدينة فأعادهم إليها ، ثم استدار إلى « بنو انجاد » ، فهزهم ، وأنزل بهم انتقامه لخيانتهم . على أنه لم يكد ينتهي من ذلك ، حتى ظهر كلوزيل وجيشه المكون من ثمانية آلاف جندي أمام المدينة ، فانسحب منها عبد القادر مع كامل سكانها إلى مدينة وجدة على الحدود المغربية ، ودخل كلوزيل تلمسان يوم ١٣ يناير ١٨٣٦ ، حيث استقبله بن إسماعيل والكراغلة وجمع من اليهود ، باعتباره منقذا لهم .

ولكنه لم يلبث أن طلب منهم دفع مبلغ مائة ألف فرنك كعربون على إخلاصهم ، وأخذ في جمع هذا المبلغ بالقوة والشدة ، كما نصب يهوديا رئيسا لمحكمة أخذت تحاكم الكراغلة ، مما لم يسبق له مثيل من قبل ، لما يحمل من معنى احتقار للمسلمين .

وهكذا دفع المنقلبون ثمن انقلابهم من غدر المحتلين . وقد علق عبد القادر على ذلك قائلا : « إذا كانت تلك معاملة الفرنسيين لأصدقائهم ، فماذا عسى يتوقع أن تكون معاملتهم لأعدائهم ؟ » . على أن هذه المعاملة خدمت قضية عبد القادر ، فقد فتح بنو انجاد الاتصالات مع عبد القادر ، وأرسل إليه الكراغلة سرا يبلغونه أنهم لا ينتظرون سوى رحيل الفرنسيين لتسليم القلعة إليه . وهكذا تحسن وضع عبد القادر بفضل غدر المستعمرين .

في ذلك الحين كان كلوزيل في سبيل إقامة اتصال مباشر بين تلمسان والساحل ، عن طريق إقامة معسكر حصين على مصب نهر التافنة Tafna . وكانت المسافة بين الموقعين في منطقة جبلية ، وقد عزم على تحقيق هدفه يوم ٢٣ يناير . ولم يكد عبد القادر يعلم بهذه الخطة ، حتى عبأ جيشه كاملا لإحباطها ، ودارت معركة شرسة دامت عشرة أيام متتالية ، استبسل فيها العرب استبسالا كبيرا لرغبتهم في الثأر لهزيمتهم السابقة ، وقد استفاد عبد القادر من أخطاء المعركة السابقة ، فلم يحاول الدخول في معركة مواجهة ، بل أخذ يستولى على الهضاب والوهاد والصخور والأنهار ، ويدافع عنها طبقا لمتطلبات المعركة . وحين أراد الفرنسيون إظهار الشجاعة ، تكبدوا خسائر فادحة ، وانهزم كلوزيل ، واضطر إلى الانسحاب إلى تلمسان حيث ترك حامية في القلعة ، ثم عاد بجيشه إلى وهران ، بينما كان عبد القادر يطارده حتى أبوابها . وفي ابريل سافر كلوزيل إلى فرنسا تاركا للجنرال دارلانج تعليمات بإتمام مهمة إقامة المعسكر على مصب نهر التافنة .

على أن محاولات دارلانج قوبلت بمقاومة شديدة ، فقد وصل بصعوبة كبيرة

إلى مصب نهر التافنة على رأس ثلاثة آلاف من المشاة وثمانى قطع من المدفعية ، وأخذ فى إقامة المعسكر الحصين ، ثم تقدم يوم ٢١ أبريل لفتح الطريق إلى تلمسان ، ولكن عبد القادر الذى كان يراقب الموقف ، تقدم لمواجهة ، واستطاع إجباره على الانسحاب والحيلولة دون اتصال المعسكرات الفرنسية . وأحست الحكومة الفرنسية بخطورة المقاومة ، فأخذت فى إرسال الامدادات لفتح الطريق إلى تلمسان بالقوة ، فى يوم ٦ مايو ١٨٣٥ نزل الجنرال بيجو Bugeaux على مصب نهر التافنة على رأس قوات كبيرة تبلغ ثلاث فرق جديدة ، وأخذ فى تجديد المحاولة لفتح الطريق إلى تلمسان ، وقد حارب عبد القادر معركة طويلة يائسة ضد القوات الصغيرة التى كانت تفوق قواته ، وفى هذه المرة لقى هزيمة كاملة .

وكما حدث بعد احتلال معسكر من جانب الفرنسيين ، فإن هذه الهزيمة تركت آثارها فى القبائل ، فكثير من الكتائب عادت إلى مواطنها ، وانشقت بعض القبائل ، وظهر فى ذلك الحين تائر يدعى سيدى إبراهيم ، انتحل لنفسه لقب السلطان ، وأعلن الثورة ضد عبد القادر ، ولكن عبد القادر سارع إلى معاقبة هذا الخائن ، فقد جرد سيفه من غمده ، وعلقه فى سرجه ، وأقسم ألا يغمده وألا ينزل عن فرسه حتى يقطع رأس الخائن ، وأسرع بمفرده تقريبا إلى قبيلة بنى عامر ، حيث كان يعلم أن الخائن بينهم ، وطلب تسليمه فى الحال ، وخشيت القبيلة أن تمتنع عن تسليمه فتعرض للاتهام بتواطئها معه ، فسلمته إليه ، وفى الحال قطع عبد القادر رأسه جزاء خيانتته .

ولم يلبث عبد القادر أن استرد قوته ، وأخذ فى محاصرة المراكز الفرنسية التى أقامها الفرنسيون فى المناطق الداخلية ، حتى يقطع كل اتصال بينها وبين المراكز الرئيسية . كما قطع كل مئونة عنها حتى اضطر الحاكم الفرنسى فى تلمسان إلى أكل القطط ، وكان يشتري الواحدة منها بمبلغ أربعين فرنكا ! .

معاهدة التافنة Tafna في ٢٠ مايو ١٨٣٧ :

في ذلك الحين كان الفرنسيون يحاصرون قسنطينة ، عاصمة الشرق الجزائري . وكانت هذه المدينة تخوض نضالا باسلا ضد الغزاة الفرنسيين تحت قيادة الحاج أحمد باي ، آخر البايات الاتراك الذين كانوا يمثلون السلطة العثمانية في الجزائر . ومن سوء الحظ أن عبد القادر لم يستطع أن يدرك أهمية التضامن مع نضال أحمد باي في تلك المرحلة . لأن رغبته في توحيد الجزائر تحت قيادته ، جعلته يرى في الحاج أحمد منافسا خطيرا يحول دون وحدة القبائل العربية في إقليم قسنطينة تحت قيادته . لذلك وقف موقف الحياد من نضال قسنطينة ، إذ رأى أنه إذا انهزم الحاج أحمد ، فسيتخلص من منافس كبير ، وتنتهي الفرصة لولاء قبائل قسنطينة له ، أما إذا انهزم الفرنسيون ، فقد يغادرون الجزائر نهائيا بعد أن أنهكهم القتال فيها ، وعندئذ ينحصر الصراع بينه وبين الحاج أحمد باي على السيادة .

على أن حصار الفرنسيين لقسنطينة فشل ، وانهزمت حملة كلوزيل . وعندئذ أصدر عبد القادر أوامره بهجوم عام على المركز الفرنسية بين جبال الأطلس والساحل . ولم يكن للفرنسيين في إقليم وهران ما يستحق الذكر ، وأصبح سهل متيجة تحت رحمته ، ونزل الألوف من العرب والقبائل وأهالي التيطري كالسيل من الجبال ، يدمرون ويشعلون النار في المستوطنات الاستعمارية الفرنسية ، ويأسرون المستوطنين الفرنسيين ، ويحملون الرعب والفرع معهم إلى مدينة الجزائر نفسها ، وأصبحت حالة الحاميات الفرنسية في حالة سيئة بعد أن فرض عليها الحصار ، وتعرضت لخطر الجوع الذي أصبح يخيم في كل لحظة .

وقد أثارت هذه الأعمال ، بالإضافة إلى نكبة قسنطينة ، جزع الشعب الفرنسي ، وأخذ كثيرون من السياسيين الفرنسيين يرون في استعمار الجزائر

حلما من الأحلام ، واعتبروا كل العمليات الحربية التى تجرى هناك إهدارا لكثير من الدم والأموال ، ورأوا أن سياسة فرنسا الحقيقية يجب أن تكون مجرد الاحتفاظ ببعض المراكز الساحلية بهدف منع القرصنة ، وإقامة علاقات سليمة مع أهالى البلاد . وقد رفض البرلمان الفرنسى ارسال أكثر من ثلاثين ألف جندى فرنسى إلى الجزائر ، وخطب أحد زعماء الأحزاب الفرنسية يستنكر مغامرة الجزائر ، وينادى بوجوب التخلّى عنها ، حتى لا يرى الفرنسيون آخر رجالهم وأبنائهم يبتلعون فى الجزائر .

فى تلك الظروف رأت القيادات العسكرية فى الجزائر أن تسرع بعقد الصلح مع عبد القادر ، حتى تتفرغ لمهاجمة قسنطينة دون مضايقة من قواته ، فأجرى الجنرال بيجو Bugeaux اتصالات معه لهذا الغرض ، كما أجرى الحاكم العام دامريمون Damremont اتصالات مماثلة ، وقد طلب الجنرال بيجو من حكومته حصر المفاوضات مع عبد القادر وحده ، فقبلت ذلك .

وقد أوضح عبد القادر فى هذه المفاوضات أن العرب . لا يمكن أن يقبلوا العيش تحت سلطة الفرنسيين ، حتى ولو كانت اسمية . وأنه إذا كانت فرنسا تحاول وضع العرب تحت سيطرتها بالقوة ، فمعنى ذلك أنها ستدخل حربا لا نهاية لها . وقال انه ليس من مصلحة فرنسا أن تحاول بسط سلطانها على سكان معارضين لها تماما ، ولكن من مصلحتها أن تحصر نفسها فى المشاريع التجارية فى المدن الساحلية ، وأصر على عدم التخلّى عن أى جزء من البلاد تحت سلطته ، وطلب أن يكون اقليم التيطرى داخل اطار دولته وتحت سلطته ، وطلب أيضا أن تتخلّى فرنسا عن راشقون وتلمسان وقلعتها ، كما تتخلّى عن المدافع ومدافع الهاون التى احتوت عليها القلعة قديما . وقال إنه لا بد أن يكون كل المسلمين القاطنين فى المناطق الفرنسية الساحلية تحت سلطته الشرعية ، تطبيقا لمبدأ يعد فى نظره أولى من كل اعتبارات دنيوية ، لأنه مبدأ قائم على أساس القرآن ، وهو أنه لا يجوز لأى مسلم مهما كانت الظروف أن يستسلم إلى حكم أجنبى .

والمعنى الحقيقى لهذه الشروط التى وضعها عبد القادر ، هو وجوب اعتراف الفرنسيين به سلطانا على الجزائر ، واكتفائهم بالعيش على هامش امبراطوريته ، مستفيدين فقط من الأرباح التجارية مع رعيته .

وقد رفض الجنرال بيجو هذه الشروط المهنية ، وجمع فى بداية شهر مايو ١٨٣٧ كل قواته ، التى كانت تتكون من اثنى عشر ألف جندى ، فى معسكر التافنة ، استعدادا للهجوم على عبد القادر ، ولكنه عندما استعرض موارده الأخرى وجد أنها لا تكفى . فالحصول على حيوانات النقل من الأهالى غير ممكن ، والتموين عن طريق فرنسا غير متوقع ، وحرارة الصيف المميتة تقترب ، والوقت المحدد لحصار قسنطينة الثانى قد حان ، وقد أرسل جزءا كبيرا من جيشه للمشاركة فى هذا الحصار . وبذلك أصبح السلام مع عبد القادر - مهما كان مهينا - ضرورة لا مفر منها .

على أن عبد القادر رفض أن يتحمل وحده مسئولية اتخاذ القرار فى مسألة إبرام الصلح مع الفرنسيين . فقد دعا إلى مؤتمر عام فى ٢٥ مايو ١٨٣٧ على ضفة نهر الهبرة ، حضره كل شيوخ القبائل الكبار ، وزعماء الفرسان العسكريين ، والمرابطون البارزون ، وأعيان المحاربين فى إقليم وهران ، حيث جرت مناقشة قضية السلام والحرب مع الفرنسيين . وقد شرح عبد القادر فى هذا الاجتماع المراسلات التى جرت بينه وبين الجنرال بيجو ، وطلب رأى الحاضرين .

وقد انقسم المجتمعون إلى قسمين : قسم يطالب باستمرار الحرب مع المستعمرين ، وقسم آخر يرى أن ظروف الجزائر تقتضى التفرقة بين سلام مقبول وسلام مطلوب . وقالوا ان القرآن لم يأمر بإهدار الدم بدون جدوى ، بعد أن نادى المستعمرون بوضع السيف فى غمده ، وأن الفرنسيين قد طلبوا الصلح ، وقد أملى السلطان عليهم شروطه . وكان هذا القسم الأخير يتكون من المرابطين .

وقد اتفقت غالبية الآراء على أن الفوائد التى سيجنيها الشعب الجزائرى من

السلم تبرر الاستجابة لبعض التنازلات والتضحيات التي يطلبها الفرنسيون ، مثل التنازل عن مدينة « البليدة » ، وسهل مدينة الجزائر ، مادام كل مسلم سيكون حرا في الانتقال من المناطق الخاضعة للفرنسيين إلى المناطق الخاضعة للسلطان ، وقد أرسل عبد القادر مندوبا عنه إلى القيادة الفرنسية على التافنة ، بموافقة على هذه الشروط .

وقد كان على أثر ذلك أن تم إبرام معاهدة التافنة بين الأمير عبد القادر والجنرال بيجو ، وبمقتضاها اعترفت فرنسا بالأمير سلطانا على القسم الأكبر من وهران (غرب الجزائر) وكل إقليم التيطرى (وسط الجزائر) واحتفظ الأمير بكل القلاع والمراكز الهامة في داخل البلاد ، وأصبح ندا لدولة كبرى . وانحصرت مراكز الفرنسيين في خمسة مدن ساحلية مع المناطق المجاورة لها في أضييق نطاق. ومن أهم ما نصت عليه المعاهدة لصالح الأمير ، المعاملة بالمثل على قدم المساواة مع الفرنسيين ، وحرية التجارة بين الأمير وفرنسا بما في ذلك من شراء الأمير البارود والأسلحة التي يحتاجها من فرنسا ، وتبادل الممثلين .

وقد وضحت هذه المعاهدة الحدود الفاصلة بين الدولتين في وهران والجزائر ، ولكنها سكنت عن شرق الجزائر . فإذا لوحظ أن عناية وبجاية كانتا فعلا تحت أيدي الفرنسيين ، وأن بقية إقليم قسنطينة كان ما يزال تحت حكم الحاج أحمد ، فإن هذا يشير إلى ما كان يخيئه كل طرف للآخر من نوايا حول شرقي البلاد . فالأمير عبد القادر كان يعتقد أن المعاهدة ستجعل أهالي قسنطينة يتخلون عن الحاج أحمد وينضمون إليه ، والفرنسيون كانوا يخططون للاستيلاء على إقليم قسنطينة .

مقاومة الحاج أحمد باي قسنطينة :

أتاحت معاهدة التافنة للأمير عبد القادر الفرصة لإرساء قواعد دولة وطنية في الجزائر ، ولكنها أتاحت للفرنسيين من جهة أخرى الفرصة للتخلص من

المركز الثانى للمقاومة فى الجزائر ، والذى كان يتمثل فى مقاومة الباي أحمد ،
الوالى العثمانى فى قسنطينة .

ويختلف أحمد بك عن معظم أقرانه من الولاة العثمانيين بقوة التصميم على
مقاومة الغزو الفرنسى ، فقد ولد فى قسنطينة سنة ١٧٨٠ على الأرجح ، وكان
جده بايا تركيا اسمه أحمد الكولى ، وأمه من أصل جزائرى . فهو كولوغلى ،
وقد بذل جهداً كبيراً لتعيينه باياً على قسنطينة سنة ١٨٢٦ ، حيث جرت العادة
ألا يتقلد الكراغلة Kuloglu مناصب البايك .

وعندما هاجم الفرنسيون مدينة الجزائر ، هب أحمد باى للدفاع عنها مع
قوات من الفرسان ، وقاد الجناح الأيسر للجيش الجزائرى فى أسطا والى ، ثم
انسحب إلى قسنطينة ، وعندما ظهرت حركة الأمير عبد القادر رفض أحمد باى
والأشراف الإقطاعيون فى شرق الجزائر النضال تحت لوائه . وعندما عرض
عليه القائد العام الفرنسى للجزائر الاعتراف به ، فى حالة قبوله الحكم
الفرنسى ، ودفع الضريبة - أعلن ، بمشورة أشراف المدينة ، الرفض ،
واعتبروا أنفسهم فى حالة جهاد ضد الفرنسيين ، واختاروا علماً أحمر يتخلله
سيف « ذو الفقار » .

وقد كتب أحمد باى إلى السلطان العثمانى يطلب منه منحه رتبة أمير
الأمرء ، والعمل على استرداد ميناء عنابة من الفرنسيين ، ولكن الباب العالى
تردد فى منحه رتبة أمير الأمرء ، بعد أن أعلنت فرنسا أن منح هذه الرتبة سوف
يعتبر بمثابة إعلان حرب على فرنسا . ومع ذلك صك أحمد باى العملة باسم
السلطان ، واستعمل لقب الباشا ، وأنزل هزيمة مهينة بالجيش الفرنسى المهاجم
فى نوفمبر ١٨٣٦ .

على أنه بعد إبرام معاهدة التافنة ، اتخذت فرنسا الإجراءات لضرب حصار
طويل على قسنطينة ، وأرسلت إلى أحمد باى مقترحات قاسية للصلح لدفعه إلى

رفضها ، وهو ما حدث بالفعل . وفي أوائل أكتوبر ١٨٣٧ قاد الجنرال دامريمون Damremont القائد العام والحاكم العام للجزائر ، جيشاً من عشرة آلاف ، استطاع به فتح المدينة ، وبعد حرب شوارع حامية تم احتلال المدينة في ١٣ أكتوبر ١٨٣٧ ، ومات في أثناء المعركة الجنرال دامريمون .

وعلى أثر ضياع قسنطينة ، انسحب أحمد باي إلى جبال الأوراس الواقعة إلى الجنوب . ولكن القوات التي معه أخذت تتضاءل حتى اضطر إلى الاستسلام في يونيه ١٨٤٨ . وبقي في مدينة الجزائر حتى توفي سنة ١٨٥٠ . أما الأسر الإقطاعية في قسنطينة ، فقد اضطرت إلى قبول التعاون مع السلطات الفرنسية ، وكانت تخضع للقائد العام الفرنسي في تلك المقاطعة رأساً .

سقوط معاهدة التافنة وتجدد الحرب :

في ذلك الحين كانت العلاقات بين عبد القادر والفرنسيين تسوء وتتجه نحو الحرب كما كان متوقعا . فمع أن الطرفين قد وقعا معاهدة التافنة كما رأينا ، إلا أنها اختلفا - عند التطبيق - في تفسير الكثير من نصوصها . وكان أكبر خلاف ذلك الذي دار حول حدود كل منهما من ناحية الشرق ، حيث كانت نصوص المعاهدة في هذا الصدد غير واضحة تماما . ويرجع السبب في ذلك إلى أنه عند توقيع المعاهدة لم تكن أوضاع الصراع بين الطرفين في الشرق الجزائري قد استقرت بعد ، فكما ذكرنا كانت مدينتا عنابة وبجاية في يد الفرنسيين ، وكانت قسنطينة ، عاصمة الشرق الجزائري ، ما تزال تقاوم الفرنسيين تحت قيادة الحاج أحمد باي . لذلك لم يحدد الطرفان الحدود بينهما في هذا الجزء من البلاد بدقة ، فمن ناحية الأمير عبد القادر كان يأمل في أن تنضم إليه قسنطينة بعد إبرام المعاهدة ، ومن ناحية الفرنسيين كانوا يأملون في الاستيلاء على قسنطينة بالقوة . على أن الفرنسيين نجحوا في ١٣ أكتوبر ١٨٣٧ في الاستيلاء على قسنطينة - كما رأينا - ، فأخذوا من ثم يتطلعون إلى ضم المنطقة الواقعة بينها وبين مدينة الجزائر ، وهي منطقة شاسعة جدا .

وهنا أخذ الخلاف يحتمل بين الطرفين ، فقد رفض الأمير عبد القادر الاعتراف بحق الفرنسيين في ضم هذه الأراضي الشاسعة ، حتى لا يتيح لهم الفرصة لربط منطقة احتلالهم في إقليم الجزائر بمنطقة احتلالهم لمنطقة قسنطينة . بينما أصر الفرنسيون على حقهم في ضم هذه الأراضي ، حتى لا تنفصل مناطق احتلالهم في قسنطينة عن مناطق احتلالهم في إقليم الجزائر .

وفي البداية دارت مراسلات بين الطرفين حول هذه المسألة تحاول الوصول إلى حل سلمي ، وعندما اتضح لعبد القادر أن الجانب الفرنسي يصر على موقفه ، رأى أن يتبع سياسة الأمر الواقع ويفرض موقفه على الفرنسيين . فبحركة سريعة وقوية أخضع القبائل الواقعة على حدود إقليم قسنطينة ، الذين كان يشك في تأمرهم مع الفرنسيين ، وبكل جرأة احتل المنطقة المتنازع عليها بين قسنطينة والجزائر ، وطلب إلى الكراغلة الذين استوطنوا هذه المنطقة قطع علاقاتهم الخائنة بالاحتلين ، وعندما رفضوا ، انقض عليهم وسحقهم ، وقطع رأس قائدهم التركي العميل ، وعين أحمد بن سالم خليفة له عليهم . ثم أسرع فاستولى على منطقة « الزاب » في الجنوب ، وعين عليها أحد رجاله ، وهو ابن عزوز . وبذلك أصبح عبد القادر صاحب سيادة مطلقة على المناطق التي تقع بين قسنطينة وإقليم الجزائر ، والتي كان الفرنسيون يعتمدون عليها في تموينهم بالمواد الغذائية . وقطع كل اتصال بين منطقة احتلالهم في إقليم الجزائر ومنطقة احتلالهم في قسنطينة .

وقد كان هذا أكبر اتساع بلغته دولة عبد القادر ، ولهذا أصبحت الحرب بينه وبين فرنسا أمراً محتوماً ، فلم تكن الأخيرة لتستطيع السكوت على هذا العمل الذي يقضى على آمالها تماماً في التوسع داخل الجزائر . على أنه لما كانت السلطات الفرنسية تدرك أبعاد الخطر المترتب على حرب تخوضها مع عبد القادر ، فقد اقترح الماريشال فاليه Valée ، الحاكم العام لمدينة الجزائر ، على حكومته ثلاثة اقتراحات :

الأول - أن تقف موقف الدفاع ، وتعلن احتجاجها على احتلال الأمير

للمنطقة المتنازع عليها ، تاركة للزمن أن يلين موقفه .

ثانيا - أن تهاجمه في الحال قبل أن يدعم قوته .

ثالثا - أن تشترك معه في احتلال المنطقة المتنازع عليها حتى يتم الاتفاق .

على حل نهائي للموضوع .

وقد قبلت الحكومة الفرنسية الاقتراح الثالث مع بعض التعديلات . فقد رأت الاكتفاء بعبور قوة فرنسية للمنطقة ، بدلا من احتلالها احتلالا دائما ، لإظهار أن المنطقة ليست تحت سلطة عبد القادر . وقد عهدت بهذه المهمة إلى الدوق دورليان D'orleans ابن الملك فيليب نفسه .

وكانت الخطة الفرنسية أن تتحرك قوة عسكرية فرنسية من « ميله » في اقليم قسنطينة ، مارة بمضيق « باب الحديد » ، عابرة المنطقة المتنازع عليها والتي احتلها عبد القادر ، حتى تصل إلى مدينة الجزائر .

وقد أعطيت لهذه الخطة كل السرية اللازمة لخطط الحرب ، وتحركت القوة من مدينة ميله يوم ١٨ أكتوبر ١٨٣٩ وعلى رأسها المارشال فالهيه والدوق دورليان ووصلت إلى مدينة سطيف من اتجاهين متعارضين يوم ٢١ ، فأسرعت القبائل للدفاع عن نفسها ، ولكن القادة الفرنسيين خدعوا شيوخ القبائل بتصريحات مرور مزورة عليها خاتم عبد القادر . ثم تحركت القوة نحو « باب الحديد » في منطقة جبلية صعبة ، وعبرت المضيق الهائل لباب الحديد ، ثم مرت وسط قبيلة بني منصور . وفي يوم ٢١ وصلت بني بني ، وهناك حدث تبادل إطلاق النار . ولم يكن لدى بن سالم ، خليفة عبد القادر في تلك المنطقة ، وقت كاف للاستعداد ومواجهة القوة الفرنسية . وفي أول نوفمبر دخل الدوق دورليان والمارشال فالهيه مدينة الجزائر دخول المنتصرين ، واستقبلوا استقبال الفاتحين ، ودامت الاحتفالات بهذا الحادث أربعة أيام كاملة ، وأقيم احتفال ضخم في ساحة باب الواد تكريما لأبطال باب الحديد . لقد اعتقد الفرنسيون الآن أنهم احتلوا الجزائر .

وقد وصلت أخبار عبور الفرنسيين باب الحديد إلى الأمير عبد القادر وهو في تاقدامت ، فأسرع إلى مدينة المدية جنوب مدينة الجزائر .

وفي يوم ١٤ نوفمبر ١٨٣٩ عقد مجلسا عسكريا كبيرا برئاسته ، حضره اليهودى دوران Durand ، وهو ضابط اتصال بين عبد القادر والمارشال فاليه . وقد حاول دوران أن يثبط همة الزعماء ، وأسهب في الحديث عن عدم نضج جيش عبد القادر ، وضعف موارده ، والاضطرابات الداخلية التى تعوق حركته فى كثير من الأحوال ، وذلك بالمقارنة مع قوة الجيش الفرنسى وانضباطه ووحدته . وقد أجاب عبد القادر قائلا : « إننى أعلم ذلك ، ولكن خلفائى ينادون بالحرب بصوت عال ، وقد أصبح شعبى يعتبرنى كافرا لأنى مازلت لم أعلن الحرب . اننى لا أرغب فى الحرب ، ولكن الفرنسيين يدفعوننى إليها » .

وقد اجتمع المجلس العسكرى مرة أخرى ، ونادت الأصوات بالجهاد من جديد ، فقال عبد القادر : « ليكن ذلك مادامت هذه رغبتكم . ولكنى لن أقبل المسؤولية إلا بشرط واحد ، فإنكم ستعرضون للمتاعب والمشقة والمحن وخيبة الأمل ، وقد يملككم اليأس ، أو تتعبون من الحرب . فاقسموا لى على القرآن الكريم أنكم لن تتخلوا عنى أبدا مادمت أحمل راية الجهاد » . فأقسم له جميع الشيوخ والخلفاء .

وفي يوم ١٨ نوفمبر ١٨٣٩ أعلن عبد القادر الحرب رسميا على الفرنسيين ، وكتب الى المارشال فاليه يقول : « لقد سبق أن أخبرتكم أن جميع العرب من حدود المغرب إلى حدود تونس مجمعون على الجهاد ، ويجب على طبقا لشريعتنا أن أخضع للاجماع . فأرسلوا إلى قنصلى فى وهران ، وكونوا مستعدين . فالمسلمون جميعا قد أعلنوا الجهاد . ومهما حدث فلن تستطيعوا اتهامى بنقض العهود » .

ولم يلبث عبد القادر أن أعلن التعبئة العامة لجيوشه . وفى خلال وقت وجيز

بدأت تتدفق من فوق مرتفعات بني صالح أعداد غفيرة غطت سهول مدينة الجزائر ، وأخذت أفواج جديدة تنضم إلى تلك الحشود قادمة من الجبال المجاورة ، وأخذت تنحدر كأنها انهيارات الثلج الضخمة صوب سهول مدينة الجزائر . وفي الوقت نفسه عبر خليفنا المدية ومليانة نهر الشلف على رأس جيوشها ، وفرض ابن سالم الحصار على المراكز والمستعمرات الفرنسية المنعزلة في الشرق ، بينما كانت جيوش أخرى تأتي من الغرب تملؤها الرغبة والحماسة للقتال .

وسرعان ما هوجمت المستعمرات الفرنسية والمؤسسات الزراعية والمزارع النموذجية والمراكز الفرنسية المنتشرة ، وغطى دخان القرى المحترقة الجو ، وتعرض المستعمرون الفرنسيون لمذابح كبيرة في معظم القرى ، وطوردوا حتى أبواب مدينة الجزائر نفسها .

وفي مدينة الجزائر انتشر الذعر كالعاصفة الهوجاء ، وهدد الأهالي هناك بالثورة ، وانتشرت الاشاعات بأن عبد القادر قادم على رأس جيش عرمرم تعدادة ٣٠,٠٠٠ مقاتل ، تسبقه طليعته التي تبلغ ٥٠٠٠ جندي لتلغيم أسوار المدينة . فجلا الناس في الضواحي عن منازلهم ، وأخلى المارشال فاليه منزله ، ونصبت المتاريس في الطرقات ، واستمر الخوف والهلع طيلة أسابيع ، وقلت المواد الغذائية في الأسواق ، وضاعفت المجاعة من مشاعر اليأس والخوف .

على أن الموقف لم يلبث أن انقلب حين أراد عبد القادر اختبار قوته ، عن طريق مهاجمة الفرنسيين طبقا لمبادئ فن الحرب الأوربي ، وأمر قواته بمهاجمة قلعة بودورو . فقد شتت المدافع الفرنسية صفوفهم وأجبروا سريعا على الفرار . وبسرعة دعم المارشال فاليه قواته في مدينتي البليدة وبوفاريك ، على أقدام جبال الأطلس ، وأرسل وحدات عسكرية لحماية ما بقي من المستعمرات المخربة ، ووصلت إليه التعزيزات بسرعة من حكومته ، فبلغ ما تحت تصرفه ٣٠,٠٠٠ محارب ، وقرر الاستيلاء على المراكز التي أقامها عبد القادر

وتخريبها ، بما في ذلك مخازن اسلحته ومستودعات تموينه ، ومهاجمة وسحق جنده النظامي ، الذي يعد العمود الفقري لقواته ، ثم الاحتلال الدائم للمقاطعات الآهلة بالقبائل العربية الرئيسية ، حتى تقتنع بعجز السلطان عن حمايتها والدفاع عنها ، وبالتالي تحطيم سلطته ونفوذه فيها .

ثم ركز المارشال فاليه قواته في البليدة ، على أقدام جبال الأطلس الصغرى ، استعدادا للهجوم على المدينة ومليانة . وفي يوم ٢٧ أبريل ١٨٤٠ عبرت قواته نهر الشفة ، وتمكنت من هزيمة قوات عبد القادر التي تصدت لها في « مضايق المزاية » الجبلية ، ورفع العلم الفرنسي على أعلى قمم جبال الأطلس . وتلا ذلك احتلال مدينتي : المدينة ، التي كانت مهجورة ونصف محروقة ، ومليانة .

وقد استفاد عبد القادر من هذه الهزائم في تغيير خطته في القتال . فقرر عدم مواجهة الفرنسيين وفقا لأساليب فنون الحرب الأوروبية ، وأصدر تعليماته إلى خلفائه وشيوخه بتحاشي مواجهة الفرنسيين مرة أخرى بقوات ضخمة ، والاقتصر على مناوشتهم ، ومطاردة أجنحة جيوشهم ، وتعقب مؤخراتهم ، وقطع خطوط مواصلاتهم ، والهجوم على معاداتهم ووسائل نقلهم ، والتراجع الخادع ، ونصب الكمائن . وتمكن بذلك من تغيير الموقف لصالحه .

ولم يلبث أن فرض الحصار على مدينتي المدينة ومليانة ، وأخذ العرب والقبائل في المناطق المجاورة يهاجمون القوات الفرنسية الباحثة عن المؤن ، ولم تفد محاولات الفرنسيين للخروج من هذا الحصار . وخلال شهر أكتوبر ١٨٤٠ أوشك معسكر مليانة أن يتلاشى تحت عوامل الجوع والحمى ، ومات نصف الجنود ، ودخل ٥٠٠ منهم المستشفى ، وأصبح الباقون هياكل متحركة .

وعلى هذا النحو ، لم يستطع عبد القادر فقط إيقاف تقدم الفرنسيين في جبال التيطرى ، بل أبقاهم تحت رحمته ، من حدود المغرب إلى حدود تونس . وكان قادرا في معظم الأوقات على إعاقة تحركاتهم ، وإحباط جهودهم ، وكانت

تحركاته سريعة ومفاجئة ، فهو اليوم ينقض على الفرنسيين ، وفي الصباح التالى فى منطقة بعيدة على مسافة أميال ، يستنهض همة قبيلة عربية خارت عزيمتها . فكأنما أصبح جسده شيئا روحانيا لا يكل ولا يهدأ من فرط الحماس الذى يشتعل فيه .

الجنرال بيجو وخطة الطواير المتحركة :

على أن الحرب الحقيقية والحاسمة لم تبدأ إلا فى سنة ١٨٤١ ، حين تولى الجنرال بيجو منصب حاكم عام الجزائر يوم ٢٢ فبراير ١٨٤١ ، وكان من أنصار فكرة توسيع الاحتلال الفرنسى ، وسحق كل قوة تتصدى له ، وقد وضعت حكومته تحت تصرفه قوة ضخمة تتكون من ٨٥ ألف محارب .

وقد قرر بيجو التخلّى عن الخطط العسكرية التى كان يتبعها أسلافه ، والتى كانت تقوم على تركيز القوات ، وعدم السماح لها بالانسحاب مهما كان الثمن . واتبع خطة جديدة تعتمد على الطواير المتحركة التى تهاجم فى جميع الجبهات ، وعلى مرونة الهجوم والانسحاب عند اللزوم ، والتخفف من المعدات الثقيلة والمدافع الكبيرة - وبعبارة أخرى أنه اتبع خطة عبد القادر ووسائله فى الحرب !

ولما كان عبد القادر قد بقى - مع ذلك - يمتاز على الفرنسيين بأن قواته لا تحمل مئونها ، وإنما تعتمد فى غذائها أينما حلت على مخازن الحبوب التى أقيمت فى كل مكان تحت الأرض - فقد قرر بيجو أن يفعل نفس الشيء ، ويكفى طوايره حمل مئونها ، معتمدا فى ذلك على نفس مخازن عبد القادر ! فكان رجاله يحملون معهم المطاحن اليدوية الصغيرة ، حتى إذا ما وصلوا إلى مكان ما ، أخذوا ينقبون بحراهم وسيوفهم فى الأرض بحثا عن المخازن التى لم تكن مغطاة إلا بطبقة رقيقة من التراب ، ثم يخرجون ما بها من حبوب ، يقومون بطحنها وتحويلها إلى دقيق عن طريق المطاحن اليدوية . وبهذه الطريقة أصبحت القوات الفرنسية تمون نفسها فى المكان الذى تتواجد فيه .

وقد واجه عبد القادر هذه الخطة بالتخلي عن قلاعها جميعا ، حتى لا يضيع جهود قواته بلا طائل في محاولات الدفاع عنها . وأصبحت المدن المحصنة بالنسبة لأسلوب قتاله الجديد عبئا ثقيلا يرحب كثيرا بالتخلص منه . وفي الوقت نفسه كان لا يكف عن شن الحرب النفسية على خصمه الجنرال بيجو . فقد كتب إليه في تلك الفترة التاريخية يقول :

« لتحرق ولتخرب ماتشاء من حرثنا ، ولتنهب ماتشاء من مخازن حبوبنا ، فإن ذلك لن يعنى شيئا بالنسبة لنا . ان الأراضي التي تأخذها منا ليست سوى قطرة في بحر ، وإننا سنطارد قواتك وسننهكها ونشتتها ، وسيكمل الطقس بالنيابة عنا البقية . هل تتوقف الموجة عن التصاعد والتضخم إذا لامسها طائر سريع ؟ . تلك هي صورة مروركم في إفريقية ! »

وقد أثمرت خطة عبد القادر ، فان الخسائر التي منيت بها القوات الفرنسية بسبب الكر والفر ، والمعارك المتواصلة ، والحراة القاتلة كادت توردها مورد الفناء . وفي نهاية سنة ١٨٤١ كان في وسع الجنرال بيجو أن يعلن أن الجنود الذين كانوا تحت قيادته ، لم يتبق منهم سوى أربعة آلاف قادرين على خوض القتال .

ومرة أخرى حاولت الحكومة الفرنسية التوصل إلى اتفاق مع عبد القادر ، على أساس رفع الحصار عن الحاميات الفرنسية وإلقاء السلاح ، في مقابل الاعتراف بكل حقوقه السابقة وإعادة كل الأراضي التي كانت له . ولكن عبد القادر ضحك من هذه المقترحات قائلا : « دع الفرنسيين يحتفظون بالمدن . هل تستطيع المدن أن تعطيهم الطعام ؟ . إننا مادما نسيطر على داخلية البلاد ، وفي استطاعتنا مهاجمتهم وتعطيل قوافلهم ، فإن وضعنا سيكون أكثر تفوقا » .

على أن بيجو لم يلبث أن أخذ في إنشاء مراكز عسكرية دائمة في قلب المجتمعات العربية القبلية ، لتتطلق منها الطواير المتحركة لضرب المقاومة

وإثبات حضورها السريع في كل وقت . كما قرر اتخاذ إقليم وهران مسرحاً أساسياً لعملياته العسكرية ، باعتباره القاعدة التي يستمد منها عبد القادر قوته . فاحتل الجنرال لامور سيير Lamorciere مدينة معسكر ، واحتل الجنرال بيدو Bedeau تلمسان ، وأخذ الجنرال شانجار نيه Changarnier في مراقبة حدود سهل مدينة الجزائر من الناحية الغربية ، وهدد الجنرال ديتبول D,Hutpoul « التيطرى » . وأرسلت ثلاثة طوابير متحركة من وهران ومستغانم لإخضاع القبائل الواقعة بين البحر وجبال الأطلس والتي تقع في اتجاه الصحراء .

وكانت مهمة الطابور الذي يقوده لامور سيير مطاردة السلطان عبد القادر نحو الجنوب ، لعزله عن هذه القبائل ومحاوله اقتناصه . ولكن مهمته باءت بالفشل بفضل مهارة عبد القادر الذي كان يعتمد على سرعة الحركة والمفاجأة . فكان يتسرب بين طوابير العدو ، ويمر في مقدمتهم ، ويحوم حول أجنتهم ، ويهاجم مؤخرتهم . وكان الأعداء يجدونه مرة في السهول ومرة في الجبال ، ينقض بسرعة ، ثم يختفى عن الأنظار !

الزملة La Smala :

على أنه رغم هذه الجهود الهائلة التي بذلها عبد القادر لإحباط خطط أعدائه المستعمرين ، ووقف انتشار روح التخاذل والهزيمة في الداخل ، إلا أن مثابرة الفرنسيين على القتال ، وتعويضهم المستمر لخسائرهم في الأرواح والمعدات والسلاح ، وتزايد حجم جيوشهم - قد جعل كفة القتال مع مرور الوقت تميل لصالحهم . فقد تعرضت كل مراكز عبد القادر الثابتة للغزو والتخريب ، كما أن « القبطنة » مسقط رأسه ، قد هوجمت وخربت ، وأصبح أعضاء أسرته مشردين . ومما زاد الطين بلة أن عائلات أتباعه المخلصين أصبحت عرضة باستمرار للهجوم عليها ، ليس فقط من جانب المستعمرين ، الذين اعتدوا على حرمان النساء من أجل الانتقام ، بل وأيضاً من جانب الخارجين على عبد القادر .

وعند ذلك تفتق ذهن عبد القادر عن فكرة مثيرة ، هى تجميع نساء المجاهدين وأطفالهم وشيوخهم وعجزتهم فى معسكر واحد ضخم متنقل يتبعه فى جميع تحركاته ، سواء فى تقدمه نحو المناطق المتمدنة ، أو فى تراجعہ نحو الصحراء ، وبحيث يمكن الدفاع عنه وحمايته باستمرار .

وقد أطلق على هذا المعسكر العظيم اسم « الزمّلة » . ومع مرور الوقت أصبحت الزمّلة بمثابة مدينة ضخمة متنقلة يقدر سكانها بنحو ٢٠,٠٠٠ نسمة ، ثم بلغت مايقرب من ٦٠,٠٠٠ نسمة ! . وكان العرب يرسلون إليها مقتنياتهم الثمينة ، وقطعان مواشيهم ، ونساءهم وأطفالهم وشيوخهم .. وعندما تكون « الزمّلة » فى الصحراء ، كانت خيامها تمتد وتتسع وتترامى وراء الأفق البعيد . وعندما تكون فى التل ، كانت الخيام تملأ السهول وتغطى منحدرات الجبال .

وكانت « الزمّلة » منظمة حسب ترتيب عسكري محكم ، فكانت مقسمة إلى « دوائر » أى مجموعة من العائلات ذات النسب المشترك ، وكل « دائرة » لها خيامها التى كانت تختلف عددا حسب قوة كل منها ، ولها رئيس ، مركزه معروف ، وله وظيفة معينة تبعا لمكانته أو الثقة التى يوحى بها . وكانت الدوائر موزعة على أربعة مخيمات كبيرة . وقد عين عبد القادر أربع قبائل لمراقبة وحماية وإرشاد « الزمّلة » أثناء تحركها ، كما عين جندا نظاميين لحراستها . وكانت الزمّلة « تحتوى على حرفيين مهرة فى الدروع والسروج وغيرها من الحرف الضرورية لحياتها اليومية وأمور معيشتها . وكانت تقام فيها سوق عظيمة يؤمها الكثيرون ، وكانت الحبوب تجلب إليها من قبائل الشمال .

وكان نظام التعسكر فى « الزمّلة » منظما تنظيما دقيقا ومحترما من الجميع . وعندما كان عبد القادر يضرب خيمته فى الزمّلة ، كان كل فرد فيها يعرف المكان الذى يشغله من هذه الخيمة . ونظرا لكبر حجم « الزمّلة » التى كانت أشبه بعاصمة كبيرة ، فحيثما حلت فى منطقة ، كانت مياه الآبار والجداول فيها تنضب !

وقد أصبحت الزملة مع مرور الأيام أداة لتوحيد القبائل حول عبد القادر ، بعد أن أصبحت تضم نساءها وأطفالها وشيوخها وقطعانها . كما أصبحت أيضا وسيلة مراقبة قوية ضد هروب بعض القبائل ، حتى لاتفقد أغلى ما تملك . وبذلك أصبحت محركا سياسيا عظيم الأثر في يد السلطان عبد القادر .

نكبة « الزملة » :

على أن الفرنسيين لم يلبثوا أن أدركوا مدى أهمية الزملة في تدعيم قوة السلطان ، وعرفوا قيمتها كمخزن متنقل لثروة طائلة . فأصبحت هدفا أساسيا لنشاطهم العسكري ، وأصبح كبار الضباط وصغارهم حريصين على اكتشاف موقعها ، والاستيلاء على هذه الغنيمة الهائلة .

وفي ربيع عام ١٨٤٣ بدأ الجنرال لامور سبير الحملة باحتلال « تاقدامت » ، وكان هدفه « الزملة » . ولكن عبد القادر عرف من جواسيسه بهذا الهدف ، فظل في كمين لمدة عشرين يوما ، ومنع كل اتصال به حتى لا يكتشف أحد مكانه . وكان ورفاقه يعيشون على ثمار البلوط ، ويطحمون الخيل ورق الأشجار . وفشل لامور سبير في الكشف عن « الزملة » .

على أن الخيانة فعلت فعلها على يد الشيخ عمر بن فراح ، من بني عياد ، الذي عرض خدماته على الفرنسيين لارشادهم إلى المكان الذي تعسكر فيه « الزملة » . وسرعان ما وضعت الخطة لهاجتها ، واختبرت الكتيبة العسكرية في « المدية » للقيام بهذه المهمة . وكلف الدوق دومال D,Aumale ابن الملك لويس فيليب ملك فرنسا ، للقيام بالتنفيذ .

وفي يوم ١٠ مايو ١٨٤٣ ، غادر الدوق دومال مركز بوغاز على رأس جيش تعداده ١٣٠٠ من المشاة ، و ٦٠٠ من الفرسان ، ومدافع ميدان . وأعلن الشيخ عمر أن « الزملة » موجودة في « الكوجيلة » ، ولكن حين وصلت القوات

الفرنسية هنا كانت « الزملة » قد غادرتها ، ولم يعرف مكانها أحد ، وظل الفرنسيون يبحثون دون جدوى ، وهبت عليهم رياح السموم العاتية ، فأرهقت المشاة إرهاقا شديدا حتى توقفوا عن السير . وتقدم الدوق دومال بعض الأميال على رأس فرسانه فقط .

وفي فجر يوم ١٦ مايو ١٨٤٣ ، جاء الشيخ الخائن مسرعا على ظهر فرسه . معلنا أن « الزملة » عند « نبع طاقين » . وفي الحال أصدر الدوق دومال أمره إلى فرسانه بالسير إلى المكان . وهناك كانت خيام الزملة تتراعى أطرافها بين « نبع طاقين » إلى « جبل عمور » ، وكان أهلها لا يقلون عن ستين ألفا .

وارتدى الجنود الفرنسيون ملابس جنود الصبائية ، وهم جند عبد القادر غير النظاميين ، ببرانسهم الحمراء ، وأقبلوا على « الزملة » ، التي اعتقد أهلها أن هؤلاء الجند عائدون ، واستقبلتهم النساء بالزغاريد ترحيبا واحتفاء بهم . وأخذ هؤلاء الجند في الانشار في ذلك البحر من الخيام ، وفجأة أخذوا في إطلاق النار !

وتلت ذلك حالة من الفوضى التي لا توصف ، شلت جميع الجهود التي بذلت لاستعادة النظام والدفاع عن الزملة ، وأطلق الحرس ، الذي كان تعداده خمسمائة جندي نظامي ، بنادقهم مرة واحدة وفروا ! . وحاول فريق من بني هاشم الوقوف في وجه التيار بشجاعة ، ولكن الفرنسيين اكتسحوهم وسط حالة الفزع التي انتابت النساء والأطفال والشيوخ ، بينما ساد الهرج والمرج الإبل والخيول والبغال والثيران والأغنام .

وكانت مكاسب هذا النصر الرخيص لا تقدر بثمن ، وقد تمثلت في أسر عائلات أكبر قواد عبد القادر نفوذا - فيما عدا عائلته الخاصة التي تمكنت من الفرار - وآلاف الحيوانات من مختلف الأنواع ، ومكتبة عبد القادر النادرة المكونة من أندر المخطوطات العربية وكانت قيمتها تقدر بخمسة آلاف جنيه

استرليني ، وصندوقه الذي كان يحتوي على ملايين الفرنكات ، فضلا عن صناديق خلفائه وقواده التي وضعوها في « الزملة » حفظا لها ، وكانت مليئة بالنقود الذهبية والفضية والحلى الثمينة .

وقد وصلت أنباء هذه النكبة إلى عبد القادر بينما كان كامنا في موقعه في حراج سرسو المجاورة « لتاقدامت » Tagdempt يراقب الحامية الفرنسية بوهران ، التي كان يعتقد أن عليه أن يخشى خطرها بالدرجة الأولى ، فزلزلته الصدمة ، ورأى فيها نذيرا بسوء الطالع ومزيذا من النكبات . وقد تجمع قواده وضباطه ورجاله في وحدات خارج خيمته ، وكثير منهم فقد كل شيء : نساءه وأطفاله وأمواله . وحين خرج عليهم عبد القادر من خيمته ، تجمهروا حوله وقد ضاعت الكلمات من شفاههم . وكم كانت دهشتهم حين رأوا عبد القادر يرتفع بهامته فوق المصيبة ، ويستمد منها وقودا جديدا للمقاومة ضد المستعمرين . فقد وقف يقول :

« الحمد لله . أن كل هذه الأشياء العزيزة التي فقدتها والتي شغلت عقلي كثيرا . لم تزد عن أنها عاقت حركاتي ، وحولتني عن الطريق الصحيح . والآن سأكون حرا في محاربة المستعمرين . لماذا يجب علينا أن نحزن ونشكو ؟ أليس كل الذين أحببناهم وفقدناهم الآن في الجنة ينعمون ؟

وفي اليوم التالي كتب عبد القادر إلى خلفائه يقول : « ان الفرنسيين قد قاموا بغارة على « الزملة » . وعلينا ألا نفقد شجاعتنا ، فسنكون من اليوم أخف حملا وأفضل استعدادا للجهاد » . وهكذا في أحلك الظروف أوقد عبد القادر شعلة الأمل في صدور رفاقه بعد أن كادت تخبو .

لم يستطع الفرنسيون أن يأسروا من « الزملة » أكثر من ثلاثة آلاف أسير ، نظرا لقلة عدد جنود الحملة ، أما بقية الزملة فقد تفرقت في مختلف الاتجاهات ، فوقع البعض في أيدي لامور سير ، الذي سارع لمطاردتهم ، ووقع البعض

الآخر أسيرا في يد بعض القبائل العربية التي سلبتها ماكان عندها ، وكان في طليعة القبائل التي طاردت « الزملة » مصطفى بن اسماعيل ، ولكنه لقي حتفه بينما كان يجتاز منطقة فليته جزاء له على خيائته ، فقد هوجم وأطلق عليه النار وقطعت رأسه وحملت إلى مركز قيادة عبد القادر ، ففارس فيه برهة ثم أمر بأن يرمى به إلى الكلاب .

استمرار مقاومة عبد القادر :

بعد نكبة الزملة ، حاول عبد القادر إعادة تنظيمها من جديد ، لاستعادة نفوذه ، وبث الثقة العامة في قومه مرة أخرى . ولكن جهوده منيت بالفشل . لقد كانت الآثار المعنوية للاستيلاء على الزملة من الجسامة بحيث لم يتمكن عبد القادر أبدا من التغلب عليها في نفوس الناس . وأخذت الأخبار تصل إلى عبد القادر يوميا عن انسحاب قبائل كبيرة ذات نفوذ من المعركة ، بل وانضمامها إلى أعداء البلاد علانية .

ومع ذلك فقد تلت نكبات أخرى أشد وأقسى . فقد فقد عبد القادر الكثير من خلفائه وقواده المخلصين في كثير من المناطق ، بعد سقوطهم في ميدان الشرف والاستشهاد ، أو وقوعهم في الأسر . وعندما جرد عبد القادر من هذه الدعائم القوية ، أخذت دولته تفقد تماسكها ، وسقطت أقاليمه البعيدة في يد الفرنسيين .

وقد حاول الاتفاق مع انجلترا على أن يترك لسيادتها المدن الساحلية ، في مقابل مساعدته على طرد فرنسا من الجزائر . ولكن انجلترا رفضت . فحاول الاستعانة بالسلطان العثماني على أساس الاعتراف بسيادة الخليفة العثماني ، في مقابل نجدة تصل منه على وجه السرعة . ولكن السلطان العثماني لم يستجب لذلك .

ثم حاول عبد القادر الاستعانة بالسلطان عبد الرحمن ملك المغرب ، ووجه إليه خطابا ألح عليه فيه أن يسخر كل موارد وقوات دولته لخدمة القضية المشتركة ، منوها بالخطر المشترك الذى تتعرض له كل من الجزائر والمغرب قائلاً : « إذا احتل الفرنسيون الجزائر كلها ، ألن يكون من السهل عليهم إيجاد المبررات للاعتداء على المغرب كما وجدوا المبررات للاعتداء على الجزائر ؟ » . وكان من المبررات التى ساقها ليقنع ملك المغرب بالمساعدة ، أن القبائل العربية التى ضعفت عزيمتها مؤقتا لو رأت جيوش المغرب قادمة لدخول المعركة ، فستنهض عزيمتها ويثور حماسها من جديد ، وتتوحد صفوفها ضد الخطر الفرنسى . ولكن الملك عبد الرحمن ، الذى كان بدوره يخشى الفرنسيين ، رفض مساعدة عبد القادر ، متوها أنه بهذا الامتناع يحمى عرشه من الخطر .

على أنه من سوء حظ السلطان عبد الرحمن أن وضع عبد القادر على الحدود المغربية ، كان يجعل التصادم بين فرنسا والمغرب أمرا لا مئاض منه . ذلك أن عبد القادر كان قد جعل من حدود المغرب فى ذلك الحين قاعدة لغزواته فى الجزائر ، وكان ينسحب عند اللزوم إلى الأراضى المغربية ، التى كانت عواطف أهلها تتقد حماسا وإعجابا بالبطل الجزائرى الذى لا يقهر ، والذى شرف بلادهم بجعلها ملجأ له عند الحاجة . لذلك رأى الفرنسيون أنهم لن يستطيعوا قهر عبد القادر إلا بالضغط على المغرب حتى يمتنع عن إيواء عبد القادر ووجهوا إنذارا إلى السلطان عبد الرحمن بهذا المطلب ، وعندما رفض قاموا فى شهر يونية ١٨٤٤ باحتلال مدينة وجدة المغربية على الحدود بينها وبين الجزائر ، فاضطر السلطان المغربى إلى خوض الحرب دفاعا عن كيان سلطنته ، ولكن جيوشه انهزمت هزيمة منكرة فى معركة وادى إيزلى يوم ١٤ أغسطس ١٨٤٤ ، وقامت البحرية الفرنسية فى اليوم التالى بضرب مدينة طنجة وميناء موجدادور على ساحل الأطلسنى ، وفرضا على السلطان عبد الرحمن معاهدة تقضى باعتبار عبد القادر خارجا على القانون فى جميع أنحاء الدولة المغربية والجزائر ، ووجوب مطاردة القوات المغربية له فى أرض المغرب ، كما تطارده القوات الفرنسية فى أرض الجزائر .

ومنذ ذلك الحين تضاعف أعداء عبد القادر . فلم يعد عليه فقط مواجهة القوات الفرنسية في الجزائر ، أو القبائل المنشقة عليه وانضمت إلى الأعداء ، بل أصبح عليه مواجهة القوات المغربية التي أصبحت تعتبره ، بحكم المعاهدة مع فرنسا خارجا على القانون .

وخلال ربيع عام ١٨٤٤ ، انتهز عبد القادر فرصة تركز الجيش الفرنسي على الحدود المغربية لمحاربه ، وقام بتسرب سريع إلى أقاليم التل حتى وصل إلى تيارت ، وأخذ يدعو القبائل إلى الجهاد ، ويستدعى زعماءها إلى الاجتماع به ، ويحاول الحصول منها على مقاتلين لتعزيز قواته العسكرية . ولكن نداءاته لم تلق سوى استجابة ضعيفة ، لأن انتشار القوات الفرنسية في جميع أرجاء الجزائر ، وانقضاضها السريع ، قد أربى القبائل وأثر تأثيرا بالغا في معنوياتها وروحها الوطنية ، ولذلك عاد عبد القادر إلى دائرته وهو في حالة قنوط شديد .

الحرب بين عبد القادر وسلطان المغرب :

على أن ظروف مطاردة الفرنسيين لعبد القادر واشتدادها مالبت أن دفعت عبد القادر إلى أن يعسكر على وادي ملوية في المغرب . ولم يكن يأمل في ذلك الحين في أكثر من عدم التعرض له بالأذى من جانب القوات المغربية . وكان يطمع في شيء من الراحة والهدوء . ولكن السلطان عبد الرحمن ، تحت ضغط الفرنسيين ، سارع إلى مطالبته بالانسحاب الفوري بدائرته من الحدود المغربية . وقد أثارت هذه الرسالة غضب قواد عبد القادر وقرروا عدم الاستجابة لمثل هذا الطلب ، وقالوا : « لقد أقسمنا على النضال حتى الموت ، ونحن متعهدون لاتباعك إلى أى مكان تختار ، ولكن لن نتبعك إلى الجزائر » .

وسرعان ما صدرت تعليمات السلطان المغربي إلى القبائل المغربية بمضايقة

دائرة عبد القادر وعدم التبادل التجارى معها ، ورفض بيع المواد الغذائية لها .
ثم أخذت هذه القبائل فى مهاجمة من يخرج من أفراد الدائرة إلى الفلا ونهبهم .

واضطر عبد القادر إلى استخدام القوة فى معاملة هذه القبائل ، فأمر قواته ،
التي تتكون من ١٢٠٠ فارس و ٨٠٠ من المشاة ، بحراسة المنطقة من جميع
الجهات ، ورد المغيرين على أعقابهم ، ومطاردتهم إلى خيامهم وإحضارهم إلى
الدائرة ومعاقبتهم . وبهذه الطريقة تحسن موقفه ، وتهاطلت عليه المواد
الغذائية ، بل إن أكثر من قبيلة طلبت الانضمام إلى الدائرة ، كما أرسلت قبيلة
بنى حميان ذات النفوذ تأييدها لعبد القادر .

وعندما تبين السلطان عبد الرحمن أن استخدام القبائل المغربية لم يعد
مجديا ، أرسل فى يوليو ١٨٤٧ قوة كبيرة من جنده تحت قيادة ابن أخيه مولاي
هاشم والقائد الحمراء لمهاجمة عبد القادر . وكانت دائرة عبد القادر معسكرة فى
وادي سلاف على حدود قبائل الريف . وبدأ الأمير بإرسال قوة استطلاعية ،
ولكن مدافعى الدائرة فى المراكز الأمامية ردوهم على أعقابهم . وأرسل
عبد القادر إلى الأمير هاشم يطلب تفسيراً لهذا العمل العدوانى ، فرد الأمير
عليه بعنجهية وسخرية ، ولم يتوان عبد القادر عن الرد بطريقته الخاصة ، ففى
نفس الليلة انقض على المعسكر المغربى انقضاضاً صاعقاً ، وألحق به هزيمة
ساحقة ، وقتل القائد الحمراء ، ونجا مولاي هاشم بأعجوبة ، وغنم عبد القادر
غنيمة ضخمة ، وكمية من المال بلغت ألفى جنيه إنجليزى ، وكمية من المعاطف
والبرانس الفاخرة التي كان الأمير المغربى يحملها لتوزيعها على شيوخ القبائل
واغرائهم بالانضمام إليه .

وعندما عاد عبد القادر إلى الدائرة ، وجد أن بنى قلعية قد انتهزوا فرصة
غيابه ، وأغاروا على معسكره ، وحملوا معهم كل الإبل . فلم يسترح لحظة
واحدة ، بل طارد المغيرين ، وقتل منهم حوالى مائة ، وأسر جميع شيوخهم .

ولم يلبث نشاط عبد القادر أن أزعج السلطان عبد الرحمن وبعث فى قلبه

الرعب ، واعتقد أن عبد القادر سوف يهاجم قصره وينحيه عن العرش . فأصدر أمرا سلطانيا يقضى بأنه : « على عبد القادر إما أن يستسلم شخصيا إلى السلطان عبد الرحمن ، أو يعود إلى الصحراء الجزائرية . وفي حالة الرفض أو التأخير ، يزحف الجيش السلطاني ضده . وهكذا انقطع آخر أمل يربط بين عبد القادر والسلطان عبد الرحمن .

ولم تلبث الحرب أن نشبت بين الفريقين . ففي يوم ٩ ديسمبر ١٨٤٧ وصلت أنباء إلى عبد القادر الذي كان معسكرا بدائرتة في « اقدين » على الضفة اليسرى لوادي ملوية ، تفيد بأن ولدى السلطان عبد الرحمن ، وهما مولاي محمد ومولاي سليمان ، على مسافة ثلاث ساعات فقط من موقعه ، على رأس جيش قوامه ٥٠,٠٠٠ جندي ، مقسم إلى ثلاث فرق كبرى ، تفصل كلا منها عن الأخرى مسافة نصف ميل . وكانت الفرقة الأولى مكونة في معظمها من العرب الاحتياطيين ، كقبائل الريف وبني سنان وغيرهم ، وقد عسكرت بالقرب من قلعة سلوان الأثرية .

ورأى عبد القادر أنه إذا انتظر هذا الجيش حتى يهاجمه ، فستقع دائرته لالحالة في قبضته ، فقرر مهاجمته في الحال بقواته الصغيرة ، حتى ولو بدا هذا العمل انتحاريا .

وفي اليوم الحادي عشر من ديسمبر ، وفي سكون الليل ، تحرك عبد القادر بقواته الصغيرة التي لم تكن تتجاوز ١٢٠٠ فارس و ٨٠٠ راجل ، وقد وضع في مقدمة قواته جملين محملين بالهلفاء ومطليين بالقطران والقار ، ولم يكد يصل إلى الفرقة الأولى بعد مسيرة ساعتين ، حتى أمر بإشعال النار في الهلفاء المحملة على ظهر الجملين ، فانطلق الجملان وقد اشتعلت فيهما النار بجنون عظيم نحو الفرقة المغربية ، يتبعها فرسان عبد القادر وهم يصيحون صيحة الحرب ، بينما كانت مشاة عبد القادر تطلق النيران . واستيقظت الفرقة الأولى على ظلام الليل وقد تحول إلى نور بفضل الوميض المنبعث من الجملين المحترقين وهما

ينطلقان كشهابين مارقين بسرعة خارقة ، تحيط بهما سهام النار المتطايرة من قوات عبد القادر ولمعان السيوف . واندفع رجال الفرقة الأولى في كل اتجاه كأن أبواب جهنم قد فتحت عليهم ، متخلين عن أسلحتهم وخيامهم ومقتنياتهم . وكانت هزيمة ساحقة .

ولم يتوقف عبد القادر ، فقد واصل وفرسانه مسيرتهم حتى التقوا بالفرقة الثانية ، فأخذوها بدورها على غرة ودخلوا معها في اشتباك مميت ، ومزقوها شرمزق .

ثم انطلقوا في أعقاب ذلك للقاء الفرقة الثالثة ، ووصلوا إليها في أقل من نصف ساعة ، وباغتوها قبل أن يجد الأميران الفرصة لتنظيم صفوفهما ، وكان هدف عبد القادر المضى قدما إلى خيامهما وأسرها ، ولكنه لم يتمكن من ذلك بسبب ستار كثيف من نيران المشاة والمدفعية أجبرته على التخلي عن هدفه . وفي منتصف النهار تحرك خمسة آلاف فارس مغربي للهجوم ضده ، فتركهم عبد القادر يتقدمون بينما كان يترصد بهم على مرتفع مجاور ، وعندما وصلوا إلى مدى إطلاق النار انقض عليهم برجاله ، وتمكن من تشتيتهم ، ثم عاد بفرسانه إلى وادي ملوية عند الغروب .

تخطيط مقاومة عبد القادر :

في ذلك الحين كانت مقاومة عبد القادر قد وصلت إلى نهايتها تقريبا ، بعد أن أثقله النضال ضد جبهات ثلاث : جبهة الفرنسيين ، وجبهة القبائل التي نكثت العهد وتخاذلت عن الكفاح ، وجبهة السلطان عبد الرحمن . وبالنسبة للجبهة الفرنسية فإن الفرنسيين ، منذ أن استأنف عبد القادر نشاطه العسكري ، كانوا قد جلبوا إلى الجزائر من التعزيزات ما بلغ بعدد قواتهم إلى نحو ١٢٠,٠٠٠ جندي ، وبذلك أصبحت هناك أربع عشرة فرقة كبيرة ، كل منها مزودة بمشاتها

وفرسانها ومدفيعيتها ، وتعمل بالتناسق فيما بينها . وقد أخذت هذه الفرق الضخمة تحت قيادة الجنرالات لامورسيير وكافينياك وبيدو وبيجو ، تحرق الأرض حرقاً في كل الأنحاء ، تسحق كل مقاومة تظهر أمامها بالحديد والنار ، وتحرق المنازل دون تردد ، وتشعل النيران في الحصاد ، وتسوى المدن بالأرض ، وتذبح الناس بدون رحمة . واشتهر في ذلك ما عرف باسم « الطابور الجهنمي » تحت قيادة الجنرال سانت أرنو St. Arnaud ، وأحست الجزائر بوحشية العمل الاستعماري الذي يرتدى زيفاً رداء المدنية والتقدم .

وقد ترتب على ذلك أن وجدت كثير من القبائل نفسها بين الفناء التام والاستسلام . ولم تغن محاولات عبد القادر لردها إلى النضال الوطني بالاقناع أو بالقوة ، كما فشلت جهوده لتجنيد قوات من قبائل الصحراء ، فأينما حل وجد الفرنسيين أمامه قد سبقوه . وقد استسلم أولاد نائل ، وبنو صهيبي ، وبنو حسن الذين طالما مون نفسه من مواردهم ، واعتاد أن يجد عندهم الملجأ وقت الشدة ، وحيثما حل عبد القادر وجد الفتور والقنوط واليأس . ان نزوله ببعض القبائل أصبح يعد حينذاك علامة من علامات سوء الطالع ومقدمه سوء .

فقد زار أولاد سيدي الشيخ ، وهم قبيلة كبيرة وقوية في أقصى جنوب الصحراء ، واجتمع برؤسائهم ومرابطتهم ، وقد استقبلوه بترحاب ، وأعربوا له عن عواطفهم الصادقة ، وعرضوا عليه ضيافة مؤقتة ، ولكنهم تضرعوا إليه ألا يعرض قبيلتهم للنكبات ، ويعرض قبور أوليائهم لدنس الكفار . وقد تقبل عبد القادر هذه الرغبة بالهدوء والاستسلام ، وعاد إلى دائرته في المغرب محطماً القلب .

وقد كانت قمة المصائب حين أصر السلطان عبد الرحمن على خروج عبد القادر من الحدود المغربية ، ووصل في إصراره على ذلك إلى حد تسيير الجيوش المغربية ضده . فمع أن عبد القادر استطاع إلحاق الهزائم بهذه الجيوش إلا أن موارده كانت قد نضبت ، وذخيرته قد نفذت تقريباً ، وماغنه جنده من

ذخيرة لم يكن يصلح لبناذقهم ، وبذلك أصبح المشاة لايعول عليهم ، في الوقت الذى فقد عبد القادر أكثر من مائتين من رجاله ، وكان الباقون جميعا يعانون من الجراح .

وعلى ذلك حين أخذت جيوش المغرب تتحرك من جديد ضد عبد القادر ، لإجباره على الانسحاب بدائرتة من الأراضى المغربية ، لم يجد مفرا من الانصياع - فعبرت دائرتة وادى ملوية ووصلت إلى وادى قيس فعبرته حوالى منتصف الليل ، وبذلك أصبحت فى المنطقة التى يسيطر عليها الجيش الفرنسى .

ووقف عبد القادر يفكر : أى قوة بقيت لديه ؟ وهل مازال يملك القدرة على المقاومة ؟ . وكان مع جنوده الممزقين على بعد ثلاث ساعات من أول معسكر فرنسى يمكن أن يدخلوه جميعا قبل مضى وقت طويل كأسرى حرب . وقرر عقد اجتماع لرجالہ .

وقد عرض عبد القادر فى الاجتماع أفكاره على النحو الآتى : « إذا كنتم تعتقدون أنه مازال بوسعى أن أقوم الآن بأى شىء ، فأخبرونى . وان كنتم لا تعتقدون ذلك ، فإنى أعفيكم من القسم الذى أقسمتموه أمامى فى « المدينة » منذ ثمانى سنوات عندما قررنا استئناف الحرب ، والذى تعهدتم فيه بألا تتخلوا عنى مهما كانت الأخطار » ثم قال : ان أمامنا الآن ثلاثة بدائل : إما العودة إلى الدائرة واستئناف النضال فى وجه أية عقبة . وإما التوجه إلى الصحراء ، وفى هذه الحالة لاتستطيع النساء والأطفال ولا الجرحى أن يتبعونا وسيسقطون لاحتالة فى يد العدو . وإما الاستسلام .

فأجابوه : « لتهلك النساء والأطفال مادمت أنت سليما قادرا على استئناف الجهاد فى سبيل الله والوطن . أنت قائدنا وسلطاننا ، فحارب أو استسلم كما تشاء ، فإننا سائرون خلفك إلى حيث تقودنا » . فتوقف عبد القادر بعض لحظات ، وقال فى تأثر عميق :

« ان المقاومة قد انتهت وعلينا ان نعترف بذلك ، والله شاهد على أننا قد

حاربنا طالما كان في وسعنا ذلك ، ولكن القبائل أصبحت متعبة من الحرب ولم تعد تطيعني ، ولم يبق أمامنا سوى الاستسلام . والسؤال الآن : لمن نسلم أنفسنا ؟ هل نسلم أنفسنا إلى الفرنسيين أم إلى السلطان عبد الرحمن ؟ . لكم أن تقرروا ماتشاءون ولكني أفضل ألف مرة أن أثق فيمن حاربني على من خانني . « فأجاب الجميع بصوت واحد : « لك ماتريد أيها السلطان » . وبذلك انتهت صفحة خالدة من كفاح الجزائر .

استسلام عبد القادر :

في ذلك الحين ، كان الجنرال لامورسيير أقرب القادة الفرنسيين من موقع عبد القادر ، فأرسل إليه مبعوثين من فرسانه ، ومعهما ورقة عليها خاتمه للتفاوض في الاستسلام . وكانت شروط عبد القادر تتلخص في طلب الأمان له ولأسرته ولجميع من يريدون اتباعه ومرافقته ، على أن تنقله فرنسا إلى عكا أو الاسكندرية ليعيش فيها بقية حياته . وقد وافق الجنرال لامورسيير على هذه الشروط وهو لا يصدق نفسه ، وأعطى سيفه وخاتم أحد ضباطه إلى مبعوثي عبد القادر لتقديمها له علامة على القبول . على أن رفاق عبد القادر أرادوا موافقة كتابية من الجنرال ، فقدمها على الفور .

وفي صباح يوم ٢٣ ديسمبر ١٨٤٧ ، سار الأمير متبوعا بقواده ورجاله الذين قرروا مشاركته مصيره إلى زاوية سيدي إبراهيم ، حيث كان العقيد مونتوبان Montauban على رأس خمسمائة فارس ، فاستقبله بكل احترام واجلال بما يليق بمكانته وأعماله البطولية . ثم وصل الركب إلى جامع الغزوات ، حيث مقر قيادة الدوق دومال ، فتوجه عبد القادر يرافقه الجنرال لامورسيير والجنرال كافنيك Cavaignac والعقيد بوفور Beaufort ، وسلم نفسه إليه قائلا : « لقد وعدني الجنرال لامورسيير وعدا أعتمد عليه كل الاعتماد ، ولست أخشى أن يخلف ابن ملك فرنسا هذا الوعد » . فأكد الدوق دومال هذا الوعد . وفي يوم ٢٥

ديسمبر ١٨٤٧ ركب عبد القادر وعائلته وأتباعه السفينة « أسمودوس » التي توجهت بهم إلى طولون .

وقد استقبل نبأ استسلام عبد القادر في فرنسا بالفرحة الطاغية ، وزفته جريدة « المونيتور » إلى الفرنسيين قائلة : « اليوم تستطيع فرنسا أن تنقل المائة ألف جندي الذين تستخدمهم في الجزائر إلى أية مناطق أخرى تريد استخدامهم فيها » . فكان هذا القول خير تمجيد لعبد القادر ، الذي كان وجوده في الجزائر يساوي مائة ألف جندي فرنسي مخصصين لإخضاعه .

المقاومة الجزائرية بعد عبد القادر :

لم تنته المقاومة الجزائرية بتسليم الأمير عبد القادر ١٨٤٧ . ففي ذلك الحين كان الفرنسيون قد استولوا على البلاد فيما عدا منطقتين هما : أولا : واحات الجنوب ، التي اعتصم بها بعض زعماء الطرق الصوفية ودافعوا عنها باسم الدين ، ومنها واحة الزعاطشة التي اشتهرت بخوض مقاومة عنيفة تحت زعامة أحد رجال الطرق الصوفية يدعى « بوزيان » ، وانتهت في عام ١٨٤٩ ، وواحتا ورغلة والأغواط اللتين تم إخضاعهما في ١٨٥٣ .

ثانياً : بلاد القبائل التي تسكنها قبائل البربر ، وتتكون من بلاد القبائل الصغرى في الجزء المسكون من أطلس الكبرى وخاصة جبال الأوراس وعجور . وبلاد القبائل الكبرى (أو جبال جرجرة) ، وتقع بمحاذاة الساحل الشمالى اشرقى للجزائر ، وكان البربر قد رفضوا في البداية التعاون مع الأمير عبد القادر لشعورهم بالأمن من الغزو في جبال القبائل الوعرة ، ولإحساسهم بالتمايز الجنسي ، وبعد أن تم للفرنسيين احتلال السهول بدءوا في التسلل إلى بلاد القبائل الصغرى سنة ١٨٤٣ ، وفي خلال السنوات (١٨٥٤ - ١٨٥٧) ، أخذوا في غزو بلاد القبائل الكبرى تحت مقاومة شعبية عنيفة ، لعبت فيها

الطريقة الصوفية الرحمانية دورًا طليعيًا ، وقد انتهى إخضاع منطقة القبائل في يوليو ١٨٥٧ .

ثورة مقراني ١٨٧١ :

لم تتوقف الانتفاضات الشعبية ضد الحكم الفرنسي ، وإن أصبحت متفرقة وقل عددها ، وأبرزها في الستينات ثورة قبائل ولد سيدى شيخ في ١٨٦٤ . وفي عام ١٨٧١ وعلى أثر هزيمة فرنسا في الحرب السبعينية ، شبت أضخم الثورات وأخطرها في الشرق الجزائري ، وهى ثورة محمد بن أحمد مقراني ، وهو من طبقة الحكام الوطنية ، عمل أبوه كخليفة لمنطقة المجانة قرب سطيف ، تحت الإدارة الفرنسية ، ثم خلفه ابنه محمد في هذا المنصب سنة ١٨٥٣ بلقب باش أغا ، وقد توطدت صلة مقراني بالشيخ على الحداد ، الذى قام بنشر الطريقة الرحمانية في بلاد القبائل في الخمسينيات ، وعرف أتباعه بالإخوان . وفي فبراير زار مقراني الشيخ بمقره ، وقيل إنه اتفق معه حينذاك على الثورة ، ولكنه لم يعلنها إلا في أوائل مارس . وقد عمت الثورة أولا إقليم قسنطينة حيث تقع جبال القبائل ، ثم انتشرت في أطراف سهل المتيجة غربًا ، وإلى بسكرة جنوبًا . وأصبحت تسيطر على ثلث أرض الجزائر ، وعزلت الحاميات الفرنسية في المنطقة . وقدر عدد الذين اشتركوا في الثورة بنحو ١٥٠ ألفا ، منهم ١٢٠ ألفا من الإخوان الرحمانية .

على أنه لسوء الحظ وقع مقراني صريعا في بداية المعارك الأولى في ٢ مايو ١٩٧١ مع القوات الفرنسية ، التى تعززت بعدد من الأسرى الذين أطلق سراحهم بسمارك للاشتراك في قمع ثورة الجزائر لتخفيف وطأة الهزيمة . واضطر زعماء القبائل في نهاية الشهر إلى المفاوضة في التسليم ، وتبعهم الشيخ الحداد على رأس طائفة الإخوان في يوليو ١٨٧١ . وأما بومزران مقراني ، الذى خلف أخاه في الزعامة ، فقد ظل يناضل حتى يناير ١٨٧٢ ، بعد أن انتقل إلى الواحات الجنوبية .

وتعتبر ثورة مقراني نهاية المقاومة الوطنية المسلحة من الناحية الفعلية ، فإن الوسائل الوحشية التي اتبعتها السلطات الفرنسية في قمعها ، أدخلت اليأس في نفوس الوطنيين ، وأدت إلى رضوخهم نحو نصف قرن .

مراجع للاستشارة :

- شارل هنري تشرشل : حياة الأمير عبد القادر ، ترجمة وتقديم وتعليق الدكتور أبو القاسم سعد الله . (الدار التونسية للنشر ١٩٧١) .
- د . ارجند كوران : السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر ١٨٢٧ - ١٨٤٧ ترجمة الدكتور عبد الجليل التميمي (تونس ١٩٧٤) .
- د . جلال يحيى : السياسة الفرنسية في الجزائر ١٨٣٠ - ١٩٦٠ (القاهرة دار المعرفة ١٩٥٩) .
- د . صلاح العقاد : المغرب العربي : الجزائر ، تونس ، المغرب الأقصى (القاهرة : الأنجلو المصرية ١٩٦٩) .

Lutsky, V., Modern History of the Arab Countries (Moscow 1969).

- ناصر الدين سعيدوني : النظام المالي للإيالة الجزائرية ١٨٠٠ - ١٨٣٠ (بحث لدكتوراه الدور الثالث غير منشور ١٩٧٤) .
- د . أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية . (دار الآداب - بيروت ١٩٦٩) .